الخطب المنبرية

في تفسير

بعض آيات وسور القرآن الكريم

د. عبد الملك القاسم

دار القاسم

ح شركة دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبدالملك محمد عبدالرحمن
الخطب المنبرية في تفسير بعض ايات وسور القرآن الكريم. / عبدالملك محمد عبدالرحمن القاسم. - الرياض، ١٤٤١ هـ
٣٤٨ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٩ - ٢- ٩١٣٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الخطب الدينية ٢- خطب الجمعة ٣- الوعظ والإرشاد
أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ٨٩٧٩/ ١٤٤١

رقم الإيداع: ٨٩٧٩/ ١٤٤١
ردمك: ٩ - ٢- ٩١٣٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم

الفرع الرئيس الرياض هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ ـ فاكس: ٤٠٣٣١٥٠

الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ ـ فاكس: ٨٤١٣٠١١

البريد الإلكتروني: Sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطب المنبرية

في تفسير

بعض آيات وسور القرآن الكريم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى ونور، وشفاء لما في الصدور، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبة أجمعين.

أما بعد:

فإن القرآن العظيم هو الكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ما وعظ الواعظون بمثله، ولا أصاب الحاكم بدونه، ولا استدل العالمون إلا بنوره.

ورغبة في تفسير بعض السور والآيات وتوضيحها وبيانها، وذكر بعض معانيها وفوائدها، جعلتها في خطب تلقى على المنابر يوم الجمعة لتعم الفائدة(١). واشتملت على واحد وثلاثين خطبة رتبتها على ترتيب سور القرآن الكريم.

وانتقيت كثيراً من الفؤائد من كتابي (**عقد الجمان في تفسير القرآن**).

---

(١) وقد ألفت قبلُ مجموعة من الخطب منها: (خطب كتاب التوحيد) و(خطب الأربعين النووية) و(خطب ثلاثة الأصول) و(خطب كشف الشبهات) و(خطب نواقض الإسلام) و(خطب أسماء الله الحسنى) وغيرها؛ نفع الله بها.

أسأل الله أن يجزي الأئمة والخطباء خيراً وأن ينفع بالجهود، وأن يجعل عملي صوابًا، خالصًا لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلْقَاسِمِ

١ الخطبة الأولى[١]

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله للناس كافة بشير ونذيراً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فاتقوا الله – عباد الله – حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوى.

أيها المسلمون:

سورة الفاتحة سورة عظيمة القدر، جليلة المعنى، سميت بذلك؛ لأنه ـ تعالى ـ افتتح بها القرآن الكريم؛ وهي سورة مكية، قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

تشتمل هذه السورة العظيمة على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت: (أم القرآن)، وسميت (أم الكتاب)، و(السبع المثاني)، و(سورة الحمد)، و(سورة الصلاة)، و(الواقية).

وهذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ قال ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» [رواه البخاري ومسلم].

---

(١) سورة (الفاتحة).

ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: «وما يدريك أنها رقية» [رواه البخاري].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

عباد الله:

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست البسملة آية في بداية جميع السور، بل هي آية فاصلة بين كل سورتين، يستحب قراءتها إلا في سورة التوبة فيكره. وفي البسملة خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة. ومنهم يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق.

﴿بِسۡمِ﴾ أي: أبدأ باسم الله، استعانة على الأداء والتوفيق.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ اسم الله رب العالمين، لا يسمى به غيره؛ والله: هو المألوه المعبود - الذي تفزع إليه الخلائق، ويلجؤون إليه في الحوائج - وهو أصل الأسماء؛ وأكبر أسمائه سبحانه- وأجمعها ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اسم دال على أنه - تعالى- ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء، وعمت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر؛ ولهذا جاء على وزن (فَعْلان) الذي يدل على السعة.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن (فعيل) الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته، - دال عليها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ورحمة هي فعله - أي إيصال الرحمة إلى المرحوم- دلّ عليها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وهو الرحيم بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وأنه - تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله - وهو كثير جِّداً-، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم: الله، والرب، والرحمن.

عباد الله:

قول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾هو الثناء على الله بصفات الكمال، وهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ ولابد من قيد، هو المحبة والتعظيم؛ لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحًا.

والحمد: هو الثناء باللسان، أما الشكر فيكون باللسان والقلب والأعضاء، ولا يكون الشكر إلا مقابل نعمة، أما الحمد فيكون لكمال المحمود ولو في غير مقابلة نعمة، والله - تعالى - له الحمد والشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً.

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم، لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله ﷻ بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم الوان العبادة.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب: اسم من أسماء الله - تعالى -، ولا يقال في غيره إلا مضافًا، كقول: هذا الرجل رب المنزل، فهو المستحق للحمد وحده، وهو - سبحانه - المنشئ للخلق، القائم بأمورهم، المربي لجميع خلقه بنعمه.

والعالمون: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله -تعالى- وقيل: العالم عبارة عمن يعقل، وهو أربعة أمم: الإنس والجن، والملائكة والشياطين.

وتربيته -سبحانه- لخلقه نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم وأرزقهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تقدم تفسيرها في البسملة.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ المالك صفة لفعله جل جلاله، ويوم الدين، هو يوم القيامة، وهو - سبحانه - مالك يوم الدين والدنيا، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم حيث موقف الجزاء والحساب، وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

عباد الله:

ولما حمد - تعالى- نفسه بما هو أهله، وذكر ربوبيته لخلقه، ورحمته العامة للبر والفاجر في الدنيا، ورحمته الخاصة بالمؤمنين، وتفرده بالحكم في ذلك الموقف العظيم، ذكر بعد ذلك وجوب عبادته وطاعته والاستغاثة والاستعانة به، فقال تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والطاعة، وأنه لا يعبد إلا الله، وهو أصل توحيد الألوهية وما بعث به

الرسل: والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمى العبد عبداً لذلته وانقياده؛ والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ونخصك أيضًا بالاستعانة؛ والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والمعنى: لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

وذكر -سبحانه- الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله -تعالى- فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وقُدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، واهتمامًا بتقديم حقه -تعالى- على حق عبده، فالأول تبرؤاً من الشرك، والثاني تبرواً من الحول والقوة والتفويض إلى الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دُلَّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم الذي لا إعوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام، وثبتنا

عليه حتى نلقاك، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبت وبمعنى طلب مزيد الهداية، وهذا من أدب الدعاء أن يكون ذلك بعد الثناء.

عباد الله:

والهداية على نوعين، هداية طريق وهداية توفيق، وهداية التوفيق خاصة بالله -تعالى - ومنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. والهداية الثانية هداية الطريق: وهي هداية دلالة وإرشاد، وهي للأنبياء وأتباعهم من العلماء والدعاة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

والصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، الموصل إلى جنته ورضوانه، وهو الإسلام، وسمي صراطًا مستقيمًا لأنه طريق واسع سهل، يوصل إلى المقصود، وهذا مَثَلُ دين الإسلام في سائر الأديان، فإنه يوصل إلى الله، وإلى داره، وجواره، مع سهولته وسعته.

فالمسلم يدعو الله ﷻ أن يوفقه إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى جنته، ويدعوه أن يوفقه للاستقامة عليه بعد معرفته، فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الصراط المستقيم هو:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي؛ طريق من أكرمتهم ووفقتهم، ومننت عليهم بالهداية والتوفيق والإيمان والاستقامة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم القدوة لنا في حياتنا، واضاف - سبحانه - الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وفي الآية توسل إلى الله بنعمه وإحسانه، إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي؛ قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده».

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿غَيۡرِ﴾ أي: غير صراط.

﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ المغضوب عليهم هم اليهود، وهم الذين علموا الحق فتركوه، وحادوا عنه على علم؛ فاستحقوا غضب الله.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وغير صراط الضآلين عن الهدى، وهم النصارى، وهم الذين حادوا عن الحق جهلاً فكانوا على ضلال مبين.

قال ابن القيم: في بيان تقديم المغضوب عليهم (اليهود) قبل الضالين (النصارى) عدة أوجه: أولاها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان، وثانيها: أن اليهود جيران الرسول ﷺ في المدينة، والنصارى ديارهم نائية، وثالثهـا: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، وقيل: لأن أمرهم أخطر وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان هذه الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد ينزع عن ضلاله.

ومعنى آمين: الله استجب لنا، وليست آية من سورة الفاتحة.

وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه**» [رواه البخاري].

بارك الله لي ولكم[١]....

---

(١) كان من هدي النبي ﷺ أنه يقرأ في صلاة الجمعة بسورتي «سبح اسم ربك الأعلى» و«الغاشية»، أو بسورتي «الجمعة» و «المنافقون»، أو«الجمعة» و«الغاشية» كما روى ذلك مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وأتباعه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله:

سورة الفاتحة على إيجازها احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة وحده، من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وإثبات الجزاء والبعث في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وتضمنت إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظها منه على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته - سبحانه وتعالى-.

وقد ورد في فضل هذه السورة العظيمة حديث عظيم، رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: قسمت

الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قال الله: أثنى عليه عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **قال: مجدني عبدي – وقال مرة: فوض إلى عبدي –، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل: فإذا قال:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».**

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى– في تفسير سورة الفاتحة: اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود – تبارك وتعالى – بثلاثة أسماء؛ مرجع الأسماء الحسنى، والصفات العليا إليها، ومدارها عليها وهي: الله، والرَّب، والرَّحمنُ.

وبُنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، وحرمته، والثناء والمجد كمالان لجده... وتضمنت – يعني سورة الفاتحة – إثبات النبوات من جهات عديدة.

الأول: كون الله «رب العالمين». فلا يليق به أن يترك عباده سُدى هَمَلاً لا يُعرِّفَهم ما ينفعهم في معاشهم، ومعادهم، وما يضرهم فيهما فهذا هَضْمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قدره حق قدره من نسبة إليه.

الثاني: من اسم «الله» وهو المألوه المعبود ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله عليهم الصلاة والسلام.

الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعْطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظّ البهائم والدواب. وأدرك منه أُولُو الألباب أمراً وراء ذلك.

عباد الله:

اشتملت سورة الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وهي:

الأول: **التوحيد العلمي**- سُمِّي بذلك لتعلقه بالأخبار والمعرفة - ويسمى أيضـًا بـ«توحيد الأسماء الصفات».

الثاني: **التوحيد القصدي الإرادي** - سُمِّيَ بذلك لتعلقه بالقصد والإرادة - وهذا الثاني نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية فهذه ثلاثة أنواع.

فأما التوحيد العلمي -توحيد الأسماء والصفات- فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه، والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان:

مجمل ومفصل.

أما المجمل فإثبات الحمد لله سبحانه. وأما المفصل فذكر صفة «**الإلهية، والربوبية، والرحمة، والملك**» وعلى هذه الأربعة مدار الأسماء والصفات.

هذا وصلوا وسلموا...

٢ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله عالم الخفيات، كاشف الكربات، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماوات، ولا يخرج عن سلطانه شيء من الكائنات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وبارك عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، وأصلحوا العمل. ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

أيها المؤمنون:

أنزل الله تعالى كتابه الكريم؛ وجعله مصدر هداية وسبيل توفيق في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولنا اليوم -عباد الله-؛ وقفة مع آية عظيمة من آياته. تواترت النصوص والآثار على فضلها وفضل قراءتها في الصباح والمساء، وقبل النوم، وبعد الصلوات. ألا وهي آية الكرسي، التي اشتملت على توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات وبينت قدرة الله العظيمة. وهي أفضل آية في كتاب الله تعالى.

---

(١) آية (الكرسي).

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً. فقلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. فضرب على صدري وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**» [أخرجه مسلم].

قال السعدي: (هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً، وعند نومه، وأدبار الصلوات المكتوبة).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿ٱللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: كلمة التوحيد الخالصة؛ فهو المألوه المحبوب سبحانه، وهو الوحيد المستحق للعبادة، فلا معبود بحق إلا الله. وفي الآية نفي وإثبات، نفي الألوهية وإثباتها لله وحده، وهذا من التخلية قبل التحلية. وقد فصل هذا أيضاً في الآية التي تليها: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهو سبحانه: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: له الحياة التامة الكاملة، التي ليس لها ابتداء ولا انتهاء: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

وهو القيوم، القائم بنفسه سبحانه، له صفات الكمال والجلال وحده، لا يحول ولا يزول ولا يحتاج لغيره، ويقوم به كل موجود.

فالكل مفتقر إليه سبحانه في كل شيء؛ من البدء والإيجاد، والحفظ والإمداد والإسعاد، وفي كل حال، والله جل وعلا هو الغني وله القيومية التامة.

ولما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعدها: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فبعد أن ذكر استحقاقه للعبودية، ذكر سبب ذلك وهو كماله في نفسه ولغيره، فلا تصلح العبادة إلا لمن هذا شأنه.

عباد الله:

ومن كمال حياته وقيوميته سبحانه؛ أنه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾، وهي النعاس، ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾؛ لأن السنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يجري عليه الضعف والعجز، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال، بل هو ﴿هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد: ٣٣]، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية.

ولما ذكر سبحانه لنفسه صفة الحياة ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ ذكر بعدها ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ وفيه معنى لطيف؛ وهو أن النوم هو الموتة الصغرى، فنفى عن نفسه السنة والنوم بعد أن أثبت لنفسه كمال الحياة.

في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» [رواه مسلم].

فسبحانه ما أعظمه ! كيف يعصيه المخلوق الضعيف وهو بهذه القدرة والعظمة ؟!

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: خلقها ويملكها ويدبرها: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣– ٩٥].

ومن تمام ملكه وعظيم سلطانه: أنه لا يقدر أحد أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وأصل الشفاعة ثابت معلوم؛ لكنه للمؤمنين الموحدين، قال ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة؛ فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا**» [رواه البخاري ومسلم].

فمن توسل إلى الشفاعة بالشرك فقد ضل السبيل: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا

عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ثم قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: فعلمه محيط بجميع الكائنات، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

عباد الله:

كم يحدث في الأرض من حدث في الدقيقة، بل في الثانية الواحدة كم تسقط من أوراق، وتنزل من أمطار، ويموت من بشر، ويولد من ولدان، وتحمل من أرحام كل ذلك لا يكون إلا بتقدير الله تعالى وعلمه وأمره!

ولو اجتمع البشر كلهم بما أوتوا من علم؛ على أن يحصوا أحداث الأرض في ثانية واحدة لما استطاعوا لذلك سبيلا، والله تعالى وحده يحصيها ويعلمها؛ بل ويعلم ما يجري في سائر الكواكب والمجرات، والأرض والسماوات: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

هذا هو ربنا الذي أحاط بكل شيء علما.

فكيف نسمع أمره فلا نطيع؟! ونعلم نهيه فلا نستجيب؟!

هل عرف الله تعالى حق المعرفة، وقدره حق قدره من ضيع فرائض الله وحقوقه! وانتهك محارم الله وحدوده! وعصى الله في خلواته، وبطر بإنعامه عليه!

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي مقابل علم الله العظيم؛ فقد أخبر سبحانه عن قصور خلقه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير مضمحل في علوم الباري؛ كما قالت الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ثم قال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره) [أخرجه ابن خزيمة والدارمي]. والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هناك ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أمسك السموات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾: أي: لا يثقله حفظ السماوات والأرض وما فيهما ومن بينهما؛ بل ذلك سهل عليه؛ يسير لديه، وهو القائم

على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: العلو بكل معانيه اللائقة به سبحانه وتعالى علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وعلو الأسماء والصفات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه، وسنة رسوله، أقول ما تسمعون، واستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً يليق بجلاله، والشكر له على جزيل نعمه، وجميل أفضاله. والصلاة والسلام على نبيه وخليله، نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوى.

عباد الله:

وآية الكرسي حرز من الشيطان، يقرؤها المسلم قبل نومه فتحفظه بإذن الله؛ كما أخرج البخاري في صحيحه: أن الشيطان قال لأبي هريرة ﵁: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح). وقد صدقه النبي ﷺ.

وفي الحديث الآخر: «**ومن قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**» [رواه النسائي].

وعند الطبراني: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله ﷻ حتى الصلاة الأخرى**».

وقد ورد في فضل قراءة آية الكرسي ما ثبت في سنن النسائي وغيره من حديث أبي بن كعب ﵁ وفيه: «**أن من قرأها إذا أصبح أجير من**

الشياطين حتى يمسي، وإذا قرأها إذا أمسى أجير من الشياطين حتى يصبح».

عباد الله:

آية الكرسي أعظم آية وتدبرها أولى ما يكون، وقد شرعت قراءتها في مواضع كثيرة، ويحق لمن قرأها متدبراً متفقها أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون بذلك محفوظًا من شرور الشيطان.

ومن فضائلها آية الكرسي أيضًا: أنها تشتمل على اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، في سور ثلاث: البقرة، وآل عمران، وطه» قال القاسم أبو عبد الرحمن: «فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وفي سورة آل عمران فاتحتها ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وفي سورة طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾» [رواه ابن ماجة والحاكم وحسنه الألباني].

ومن فضائل قراءة الكرسي؛ أن المسلم إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، فتكون من أواخر ما ينام عليه المسلم آية التوحيد.

ومما ينبغي أن يتدبره المؤمن في هذه الآية الكريمة؛ حسن افتتاحها بأجل أسماء الله تعالى وهو: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

هذا وصلوا...

٣ الخطبة الأولى[١]

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فاتقوا الله -عباد الله- فإن الفوز والفلاح في ملازمة التقوى والتمسك بها.

عباد الله:

سورة التوبة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما في أصول الدين وفروعه وأحكام القتال والاستعداد له وأسباب النصر فيه، وأحكام المعاهدات والمواثيق وغيرها. وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن البراء ابن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة.

قال سفيان بن عيينة: هذه السورة نزلت في المنافقين.

وقال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة، فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحد.

---

(١) سورة (التوبة).

وروي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: سألت علي بن أبي طالب لِم لم يكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: لأن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان.

وسورة التوبة اسم على مسمى، فالله عز وجل يحب التوابين، ويفرح بها ويدعوا عباده لذلك، وآياتها مليئة بنداءات التوبة لتغرس ذلك في حس المسلم ووجدانه، حتى تلازمه ولا تفارقه: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ [التوبة: ٣]، ﴿فَإِن تَابُوا﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥]، ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]، ﴿التَّائِبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، ﴿لَقَد تَابَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

عباد الله:

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

قال ابن تيمية: فعلق الأخوة في الدين على التوبة من الشرك وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والمعلق بالشرط ينعدم عند عدمه، فمن ثم يفعل ذلك فليس بأخ في الدين .

ثم قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾.

والتنكير في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم، والمعنى أنه فوق وصف الواصفين، وتصور المتصورين. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه، جزاء ما قدموه في الطاعات والعمل الصالح في حياتهم الدنيا .

ولما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، والرضوان، والجنان. فبدأ بالرحمة؛ لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان، ولا يخفى أن وصف الجنان بأن لهم فيها نعيماً مقيماً جاء في غاية اللطافة؛ لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب.

عباد الله:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

وجاء في السورة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨].الآية الأولى في المحارب للإسلام علانية.

والثانية: في المحارب للإسلام خفية.

ـ وإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

قال السعدي: ولم يقل: تحمى في نار جهنم؛ ليدل ذلك على أنها مع حرارة نار جهنم تستعمل لها الآلات المحمية، فيضاعف حرها ويشتد عذابها. والكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع. فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء .

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، هي أن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه.

قال السعدي: وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الشعبي: عاتب الله ﷻ أهل الأرض جميعاً - في هذه الآية - إلا أبا بكر الصديق.

- فقوله - تعالى - في القرآن: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ لا يختص بمصاحبته في الغار، بل هو صاحبه المطلق الذي كمل في الصحبة كمالاً لم يشركه فيه غيره، فصار مختصاً بالأكملية من الصحبة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كل من وافق الرسول ﷺ في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك؛ وله نصيب من قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لِمَا جاء به إلى يوم القيامة، وهذا قد دل عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه.

ثم قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣].

افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم ولطافة شريفة؛ فأخبره بالعفو قبل مباشرة العتاب كناية عن خفة موجبه .

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف: بدأ بالعفو قبل ذكر المعفوّ.

وقدم العفو على العتاب إكراماً للنبي ﷺ، ووقره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

الإعداد للعمل علامة التوفيق وأمارة الصدق في القصد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ والطاعة لا بد أن يُمهَّد لها بوظائف شرعية كثيرة حتى تؤتي أكلها وتجتنى جناها.

﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] كره الله خروجهم لنفاقهم وعدم حرصهم على الجهاد.

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: قابلون مستجيبون، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون، وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم، فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم، لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

قال ابن تيمية: فأخبر أن في المؤمنين من يستجيب للمنافقين ويقبل منهم، فإذا كان هذا في عهد النبي ﷺ كان استجابة بعض المؤمنين لبعض المنافقين فما بعده أولى.

عباد الله:

ثم مضت سورة التوبة المعروفة بسورة العذاب والفاضحة، والمخزية، والكاشفة، تفضح المنافقين وتهتك استارهم. قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال السعدي: ففي هذه غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

أي: إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون، فيغنينا عن الصدقة وعن صدقات الناس .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسرّاً شريفاً حيث جعل الرضا بما أتاه الله ورسوله والتوكل على الله، وهو قوله ﴿وَقَالُوا۟

حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتضاء بآثاره، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل.

وجاء في السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

عباد الله:

في سورة الأنفال تولى الله ـ سبحانه ـ قسمة الغنائم، وجعل خمسها خمسة أخماس، وفي براءة تولى قسمة الصدقات، وجعلها لثمانية أصناف، وهذا من التناسب بين السورتين.

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله ستّير، يحسب الستر على عباده .

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب، وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب حتى خافوا غاية الخوف.

لما ذكر ـ تعالى ـ المنافقين وهتك استارهم، ذكر المؤمنين وحالهم ومآلهم، فقال:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

بدأ في هذه الآية بذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الصلاة والزكاة، وما ذلك إلا لعظم شأنه، وعموم نفعه، وتأثيره في المجتمع.

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وتدل الآية أيضًا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أخلاق المؤمنين والمؤمنات وصفاتهم الواجبة التي لا يجوز لهم التخلي عنها والتساهل بها.

وفي قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال ابن تيمية: إن الله يجعل للمؤمنين من الرحمة بما يجدونه من حلاوة الإيمان وانشراح الصدر بما لا يمكن وصفه.

ثم ذكر - تعالى - جزاءهم، فقال:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسر - شيء من رضوانه أكبر من الجنات، وما فيها من

المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون؟ فيقولون:

ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول ـ تبارك وتعالى: «**إن لكم عندي أفضل من ذلك، أحل عليك رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً**».

قال تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

في الآية ذكر الحزن على فوات الطاعة.

قال العز بن عبد السلام: الحزن على فوت الطاعة من ثمرة حبها، والاهتمام بها؛ لأن المرء لا يحزن إلا على ما عز عليه. فكيف لو وقعت منهم هنة أو جرت منهم هفوة!

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

ولم يقل: (فإن الله لا يرضى عنهم)، ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم. وأما ماداموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه.

عباد الله:

وفي آيات تالية؛ أثنى الله ﷻ على المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، فقال:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن تيمية: فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان ـ. والرضى من الله صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافقه على موجبات الرضى، ومن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يسخط عليه أبدا .

وهذه الآية تفتح لكل مسلم باب الترغيب في العمل الصالح لأن الله ـ جل وعلا ـ ذكر فيها ثلاث أصناف: المهاجرين، والأنصار، والذي اتبعوهم بإحسان وهذا يدخل فيه كل مؤمن إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

هذه الآية دلت على أن المخلِّط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحـًا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلي السلامة أقرب.

وأما المخلِّط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة .

قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

يؤخذ من المعنى، أن ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة، وعمل عملاً صالحًا بالدعاء والثناء ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

في الآية النهي عن كل عمل يراد به تفريق المؤمنين ولو كان في مسجد، فلا يوجد مصلحة في الدين أعظم من اجتماع كلمة الناس.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله مستحق الحمد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى الصحب والآل.

أما بعد:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

وسماها ساعة؛ تهوينا لأوقات الكروب وتشجيعاً على مواقعة المكاره، فإن أمدها يسير وأجرها عظيم.

قال القرطبي: اجتمع عليهم عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء.

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

قال البغوي: فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة، وقد قال في أول الآية: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قيل: ذكر التوبة في أول الآية، قيل: ذكر الذنب وهو محض الفضل من الله ﷻ فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

ثم ذكر - تعالى - قصة الثلاثة الذين خلفوا، فقال:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه .

وعلق ابن القيم فقال: فسرها كعب بالصواب، فليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأن الله لو أراد ذلك لقال: وعلى الثلاثة الذين تخلفوا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال ابن القيم: كل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله - تعالى - يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ولا مضارهما بمثل الكذب، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

قال ابن مسعود عند قوله تعالى: ﴿.....وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: الكذب لا يصلح في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجزه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال السعدي: في هذه الآية إرشاد لطيف لفائدة مهمة، وهي أنه ينبغي للمسلمين أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور، فإن التخصص مدعاة لإجادة العمل واكتساب الخبرة والنفع العام.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة؛ لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها، ولم يؤمر بمجرد التوكل.

ومن إكرام الله عز وجل لنبينا ﷺ أنه لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا وصلوا...

٤ الخطبة الأولى [١]

الحمد لله، شرح بفضله صدور أهل الإيمان بالهدى، وأضل شاء بحكمته وعدله، فلن تجد له وليـًا مرشدا، أحمده - سبحانه - وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، واشهد ألا إله الله حده لا شريك له، إلهـًا واحداً فردا صمدا، وأشهد أنَّ نبينا محمداً بعده ورسوله، كرم أصلاً، وطاب محتداً، خصه ربه بالمقام المحمود وسماء محمدا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، هم النجوم بهم يهتدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتدى.

أما بعد:

فاتقوا الله حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوى.

عباد الله:

سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله يوسف بن يعقوب - عليهما السلام- وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق.

---

(١) سورة (يوسف)، الجزء الأول.

والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مر عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد، في آيات وعبر منوعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد، لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن منة إلى منة، ومن ذلة ورق إلى عزّ ومُلك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة فتبارك من قصها ووضحها وبينها.

هكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه، وجاءت تحمل البشر والأنس، والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بد من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، وفي السورة دروس وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار ا لعجيبة، والأنباء الغريبة.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وليم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل، وصدق الله ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ١١١].

وسورة يوسف كاملة ليس فيها ذكر الجنة ولا النار، بل أحداثها تدور حول ما جرى ليوسف عليه السلام من المبتدأ إلى المنتهى.

عباد الله:

قال تعالى: في أول السورة: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز.

قال ابن كثير رحمه الله: كل سورة تبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب.

وقال الزمخشري رحمه الله: كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك - يا محمد - هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، والواضح في معانية، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، مبين والله بركته وهداه ورشده.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] أي: أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربيّاً مؤلفاً من هذه الحروف العربية؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل الله أشرف الكتب وأشرف اللغات، وعلى أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتداء إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] أي: نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان وأجمل عبارة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم، والمحسود، والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب.

عباد الله:

ها هو يوسف غلام صغير، شب في رعاية أبوين كريمين، حياته نهاراً مع أترابه وفي المساء مع أقرانه... لكنه لما جن ليلٌ وأخذته سنة النوم رأى أمراً وشاهد عجباً.. فكان ملجأه بعد الله ﷻ والده ليخبره بما رأى وليعلمه بما جرى.. يسرع نحو أبيه نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ .. قال تعالى يذكر ذلك الأمر: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

في هذه الآيات أسلوب رائع أساليب التعامل بين الأب وابنه، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يربي أبنائه على الرجوع إليه كلما حدث لهم ما يثير انتباههم، حتى يوجههم التوجيه المناسب، ولهذا فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يرى الرؤيا فيبادر بقصها على أبيه ولا يتردد، وهذا يشير إلى طبيعة العلاقة الحميمة بينهما.

فكان جواب والده: نصيحة وتوجيه عن خبرة ودارية، ومحبة وشفقة: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

لما قص عليه ابنه الصغير رؤياه أولاها الأب النبي - وحسبك بالنبوة شغلاً - ما تستحقه من الاهتمام، فلا هو أهملها كما يفعل الكثيرون، ولا هو بالغ في الاهتمام بها والتحذير من عواقبها، وكثير من الناس يظن أن رؤيا الأطفال لا أهمية لها، ولا يُعبأ بها ولا يضيع الوقت بالالتفات إليها، والواقع أنها قد تكون أصدق من رؤى الكبار، لأنهم ما زالوا على الفطرة ولم يتعودوا الكذب، وفي الحديث الصحيح: «**أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا**».

وفي قوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ كلمة قرب واستعطاف لصغيره، وإظهار مودة ومحبة.

وهنا نلحظ أمرين: أن النهي جاء معللاً وأن التعليل تعليك حكيم، مع أنه يخاطب غلامـًا صغيراً، وهذا من حسن تربية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي قوله: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

جواز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره.

وفيما بعد علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الرؤيا ابنه لن يموت مبكراً، وسوف يكبر ويبلغ مبلغـًا عظيمـًا.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: جاؤوا على ثوب يوسف بدم كاذب، زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب (كاذب)، وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه.

قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص، فلما جاؤوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لخرق القميص، وروي أنه قال: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه. وذلك أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فلم يصدقهم أبوهم بذلك.

أما يوسف فقد أحزنه ما جرى وبقي في الجب حيناً ينتظر الموت أو الحياة، فكان الفرج أقرب وهو يرى دلواً ينزل إليه من أعلى البئر، فتمسك به حتى صعد، ورأى قوماً ليسوا بأهله ولا إخوته، وسمعهم يستبشرون به ويتشاورون في أمره وماذا يصنعون به.

فأخذوه إلى سوق بلدتهم وعرضوه للبيع، فكان قدر الله ﷻ أن يكون المشتري عزيز مصر.. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

عباد الله:

ولا يزال لطف الله بعبده، فبعد أن حجب الشيطان في قلوب إخوته معاني الأخوة، قذف الله في قلب عزيز مصر معاني الأبوة، فكان الجب ثم القصر.. وكاد إخوة يوسف وأرادوا له الموت، وكان عزيز مصر متفائلاً به فرحاً به أن ينفعه بل وأن يتخذوه ولداً له.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

والله غالب على أمره حيث أراد يعقوب أن لا يكيده إخوته فكادوا.

ثم أراد إخوة يوسف قتله، فلم يقدّر لهم.

ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة، فيندرس أمره، فعلا أمره ثم باعوه ليكون مملوكًا فغلب أمره حتى ملك.

وأرادوا أن يعطفوا أباهم فأباهم.

ثم أرادوا أن يغروا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقوه على القميص فلم يخف عليه.

ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين، فنسوا ذنبهم إلى أن أقروا به بعد سنين، فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

ثم أرادوا أن يمحوا محبته من قلب أبيه، فازدادت.

ثم أرادت امرأة العزيز أن تلقي عليه التهمة بقوله: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، فغلب أمره، حتى شهد شاهد من أهلها.

وأراد يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي، فنسي الساقي حتى لبث في السجن بضع سنين.

لما ذكر - تعالى - ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا ما تعرض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وثباته أمام تلك العارمة، وما ظهر منه من العفة

والنزاهة حتى آثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهانـًا على عفته وطهارته.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فبعد أن فقد يوسف عليه السلام أبويه وما جرى له من الجب.. وقعت المحنة في قصر تربى فيه ونشأ وعاش ودرج.. قال تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

بعد أن صبر يوسف اضطراراً حين ألقي في الجب وأصبح رقيقاً.. جاءه نوع آخر من الصبر أعظم أجراً وأبين صبرا.. ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ هذه هي المحنة الثالثة، بعد محنة الجب والاسترقاق، وهي أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة.

والمراودة: الطلب برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول.

والمعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان في بيتها منه أن يواقعها، ودعته برفق ولين إلى الفاحشة، وتوسلت إليه بكل وسيلة فهو غلامها وتحت

تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر، فهو أعزب، وغريب في بلد لا يُعرف.

ولم يقل في الآية: امرأة العزيز، أو زليخا؛ بل قال ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

مع أن هذه الآيات تتعلق بقصة حب أعمى وشهوة جامحة إلا أنك تجد العفة أثناء التصوير الدقيق، والأسلوب البديع لم يحترق بتأجج النزوات وإثارة الشهوات من أجل الحبكة والإثارة الأدبية. بل تبرز معان العفة وإظهارها وبيان معانيها، وفي آيات القرآن الكثيرة من الكلمات التي تؤدي المعنى، ولا تفضي إلى ما يجرح الشعور ويبرز الفعل بصورة أو بأخرى ومن ذلك.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٢١].

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

هذا وصلوا....

٥ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله الذي خلق الجنة وجعل مفتاحها لا إله إلا الله، أحمده - سبحانه - وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة مخلص فيها، موقن بها، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، جدد ما اندرس من معالمها، ومع ذلك قال له ربه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فصدع بها ونادى، ووالى عليها وعادى، وقال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**».

دعا إلى هذه الكلمة عشر سنين ولم يدع قبلها إلى زكاة ولا صيام، ولا حج وعمرة إلى بيت الله الحرام، اللهم صلى وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه؛ الذين جاهدوا من امتنع من قولها، أو صد عنها، أو نقضها.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله حق التقوى، وأخلصوا العبادة لربكم تسعدوا وتنجوا.

عباد الله:

هي قصة عجيبة جرت فيها أحداث طوال وأمور ذات بال، وقعت

---

(١) سورة (يوسف)، الجزء الثاني.

لنبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي، سلالة أنبياء. الحديث فيها عن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، أنها قصة نبي الله يوسف، ابن نبي الله يعقوب، ابن نبي الله إسحاق، ابن نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام اصطفاه ورفعه ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قصة تبدأ مع طفولته وتنتهي بنهاية أجله، فقد عاش معاناة الطفولة بفقد الأبوين، وفراق الأهل والأصحاب وتبعتها مرحلة الحياة المرفهة في القصر، ثم دخول السجن سنين عدداً، ثم أخرجه الله ليتبوأ مكان الوزارة، وتمت له ا لنعمة برؤية أبويه بعد طول فراق. وقد ذكر الله عز وجل اسم يوسف عليه السلام في القرآن ستـًا وعشرين مرة، منها أربعـًا وعشرين في سورة يوسف.

من هنا تبدأ قصة يوسف مع إخوته، وهي بداية رحلة طويلة شاقة من المعاناة والابتلاء، قال تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] آيات لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فال ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات.

فقد سعى أخوة يوسف لإبعاده عن والده، وبدأو يدبرون عملهم، ويحزمون أمرهم، ويكيدون كيدهم للتخلص من يوسف بدعوى أن يصفو لهم قلب أبيهم، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ

أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٨- ٩].

عباد الله:

ثم ذكر - تعالى - يوسف وامرأة العزيز وما جرى بينهما من الحديث حيث فر يوسف هارباً نحو الباب، يريد النجاة لنفسه والعصمة لدينه.. هرب مسرعاً تلقاء الباب، وهي تجري خلفه محاولة الإمساك به، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]. فيه مشروعية الفرار من الفتن مهما بلغ الإنسان من علم والدين والعقل. كلاهما يجري، أحدهما يفر من المعصية، والآخر يلاحقها. الفعل واحد، ويتفاوت الجزاء بالنية.

عندما هرب يوسف نحو الباب، وامرأة العزيز تلحق به، كانت المفاجأة! قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

قال الرازي: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله - تعالى - فليقبلوا شهادة الله - تعالى - على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته - يعنى قوله -

تعالى - على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

وقال ابن تيمية: يوسف - عليه الصلاة والسلام - لم يذكر الله - تعالى - عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلا. وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها.

وفي قول الله - تعالى -: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

أن الله يعين أولياءه في اللحظات العصيبة بأمور تثبتهم، فهو كاد، لكن برهان من الله أراه إياه جعله ينصرف، ومهما كان المراد بهذا البرهان، فالإنسان لولا معونة الله وتوفيق الله وتسديده لا يثبت على الحق.

وفي الحديث: «... **ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين...**» [صحيح الجامع].

عباد الله:

لما هرب يوسف عليه السلام وهي تجري خلفه وأخذت قميصه من دبر، فكان زوجها بالباب فكان زوجها بالباب، وسمع ما قال الشاهد ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦- ٢٨] وكان فيه قله غيرة فسكت عن الأمر.

قال ابن تيمية: وفي قول يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه، ويصرفه إلى طاعته. وإلا فإذا لم يثبت القلب على الإيمان والطاعة وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة.

وبعد أن دعا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أن يصرف كيدهن عنه ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [يوسف: ٣٤] حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر في الجب والسجن صبر اضطرار، وصبر على مفارقة أمر امرأة العزيز والخوف من مقارفة الفاحشة صبر اختيار. فصبر الاضطرار لا يدل له فيه، وصبر الاختيار هو ما رفعه وعظَّم منزلته عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

وإن كان له في صبر الاضطرار الأجر بحسب حمده وصبره ورضاه.

قال ابن تيمية: رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحسبهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة، على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة، على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية.

قد قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك.

قال في فتح المجيد: لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم، وتأمل قول الله - تعالى - عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، فقوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

عباد الله:

ثم قدر الله قدراً من أقداره، وذلك أن الملك رأى رؤيا أفزعته وطلب من يعبرها، ولكنها لم تشف غليله ولم تغن عما في نفسه

شيئًا، فأخذ يتلمس من يؤول الرؤيا، حتى ساق الله له ذلك الخادم الذي كان في السجن، وهو يعرف يوسف حق المعرفة ويعرف حسن تأوليه، فذكر ذلك للملك، وقال يوسف هو الذي يؤولها.. وكان الملك قد نسي يوسف وقصته التي طوى عليها الزمن، وأندثرت حكايتها بين الناس لطول المكث في السجن.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه واستحسن ذلك، قال لمن عنده: احضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره، فقد رغب في رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله وعلمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه.

قال السعدي: فضيلة العلم: علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة، والتمكين في الأرض فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ أي: فلما جاء المبشر بالخبر السار، وطرح البشير القميص على وجه يعقوب، فعاد على حاله الأولى بصيراً، وعادت إليه قوته بعد الضعف لما حدث له من السرور والانتعاش.

قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم، فقال: أُفرحه كما أحزنته.

أما ما كان من أخوه يوسف فهو الندم والتوبة وتوجهوا إلى أبيهم: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف، وأن ا لله سيرده عليَّ لتحقق الرؤيا.

قال المفسرون: ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك! على أي دين تركته؟ على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، فأقروا بذنبهم ونجوا بذلك.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧] طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم، ثم اعترفوا بخطئهم بقولهم: أنا مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف حيث فعلنا ما فعلنا.

قال المهايمي: صرحوا بالذنوب دون الله، لزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره وصرح يعقوب الرب دون الذنوب، إذ لا مقدرا لها بالنظر إلى رحمته التي ربى بها الكل، وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعطيتني العز والجاه والسلطان، وذلك

من نعمة الدنيا حيث إنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها، ووزيراً كبيراً للملك.

وعلمتني من تأويل أحاديث الكتب المنزلة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من نعمة العلم.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدارين، اقبضني إليك مسلماً وثبتني عليه حتى توفاني عليه، واجعل لحاقي بالصالحين.

ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت.

بارك الله لي ولكم....

الخطبة الثانية

الحمد لله مجيب الدعوات، وفارج الكربات، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عباد الله:

نزلت السورة الكريمة - سورة يوسف- على رسول الله ﷺ بعد سورة هود، في تلك المدة الحرجة العصيبة من حياة الرسول ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد - عليه الصلاة والسلام - نصيرته: زوجه الحنون العاقلة الراشدة، أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وعمه أبا طالب الذي كان له خير نصير وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عرف ذلك العام بعام الحزن.

في تلك الحقبة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون؛ الوحشة، والغربة، أنزل الله - سبحانه - على نبيه ا لكريم هذه السورة تسلية له، وتخفيفاً لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأن الله - تعالى - يقول لنبيه ﷺ لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً، انظر إلى أخيك يوسف وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وألوان الشدائد

والنكبات، وما ناله من ضروب المحن: محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه فلي الجب، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورغد العيش.

انظر إليه كيف أنه لم صبر على الأذى في سبيل العقيدة، وصبر على الضر والبلاء، نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر، وملكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرم؛ وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطيد النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين والأنبياء.

من فوائد هذه القصة أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده. فإن ذلك أقرب إلى صلاح الأبناء واجتماعهم، واتفاقهم فيما بينهم، وبرهم بأبيهم، وقد كان السلف يسوون بين أبناءهم حتى في القُبلة.

وفي الحديث أنه كان مع رسول الله ﷺ رجل فجاء ابن له فقبله وأجلسه على فخذه، ثم جاءت بنت له فأجلسها إلى جنبه، قال: «**فهلا عدلت بينهما**» [السلسلة الصحيحة].

هذا وصلوا...

٦ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعد:

سورة الكهف من السور المكية، وهي إحدى سور خمس بدئت بـ «الحمد لله» وهذه السور هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ،

---

(١) سورة (الكهف)، الجزء الأول.

وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله ـ جل وعلا ـ وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

بدأ المولى السورة بالحمد ولم يبدأها بالشكر؛ لأن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، أما الشكر فيخص ما وصل إليك فقط.

وسورة الكهف مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن كما كان افتتاح النصف الأول «الحمد لله»، وكذلك الربع الرابع في سورة (فاطر).

وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها: قول النبي ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين**» [رواه النسائي].

ومنها قوله ﷺ: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال**»، وفي رواية «**من أخر سورة الكهف**» [رواه مسلم].

وسميت سورة الكهف لما فيها من المعجزة الربانية في تلك القصة العجيبة الغريبة، قصة أصحاب الكهف.

بدأت سورة الكهف بذكر القرآن وانتهت أيضًا به، وفي هذا إشارة واضحة أن من أهم عوامل الوقاية من الفتن هو التمسك بالقرآن.

ولاحظ بعض العلماء أن أفعال الحركة والسعي في السورة كثيرة، وتستفاد من: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾، ﴿فَأْوُۥٓا﴾، ﴿قَامُوا﴾، ﴿فقَالُوا﴾،

﴿فَٱبۡعَثُوٓا۟﴾، ﴿ٱبۡنُوا۟﴾، ﴿بَلَغَا﴾، ﴿جَاوَزَا﴾، ﴿فَوَجَدَا﴾، ﴿ءَاتِنَا﴾، وكأن المعنى؛ أن المطلوب من الناس السعي في الأرض؛ لأنها تعصم من الفتن، ولهذا قال ذو القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: دعاهم إلى الحركة والمساعدة .

عباد الله:

وفي السورة ثلاثة أمثلة واقعية، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة:

المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه في قصة أصحاب الجنتين.

والثاني: للحياة وما يلحقها من فناء وزوال.

والثالث: مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار.

قال ابن تيمية: قصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة.

وتحوي السورة إيحاءات ظاهرة في الإرشاد إلى كيفية النجاة والعصمة من الفتن بأنواعها، فإن في السورة أربعة أمثلة للفتن؛ تعتبر من أعظم الفتن التي يبتلى بها المرء .

الأولى: فتنة الدين في قصة أصحاب الكهف، وكيف اعتصم الفتية وفروا من كفر قومهم، فعصمهم الله ونجاهم.

والثانية: فتنة المال في قصة صاحب الجنتين، وكيف كفر الرجل هذه النعمة فمحق الله ماله.

والثالثة: فتنة العلم في قصة الخضر مع موسى عليه السلام، وشكر الخضر هذه النعمة.

والرابعة: فتنة الملك في قصة ذي القرنين، وكيف نجح ذو القرنين من الابتلاء بشكر هذه النعمة العظيمة، واستعملها في طاعة الله.

وفيها بيان أن التمسك بالكتاب الذي أنزل يعصم من كل تلك الفتن.

عباد الله:

قال - تعالى - في أول السورة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١].

قال البغوي: وخص رسوله ﷺ بالذكر؛ لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم.

لما بدأت السورة بحمد الله مع إنزال القرآن العظيم. وخطت الآيات طريق النجاة من الفتن، وذكرت قصة فتية آمنوا بربهم، وقرروا الفرار من قومهم عصمة لدينهم فآووا إلى الكهف.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾.

هذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي، أي: لا تظنن - يا محمد - أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - هي أعجب آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله ﷻ، وعلى قدرته - تعالى -، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء .

قال مجاهد: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم .

ثم يذكر ﷻ قصة أصحاب الكهف وما وقع لهم .

والكهف هو المتسع في الجبل .

والرقيم: هو اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف.

وبدأت الآيات في ذكر سياق القصة، فقال تعالى:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

أي: اذكر حين التجأ الشباب إلى الغار، وجعلوه مأواهم ليختفوا عن قومهم، يريدون التحصن من فتنة قومهم لهم وإرغامهم على عبادة الأصنام .

فقالوا حين دخلوا سائلين الله رحمته ولطفه: أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة، ورزقًا، وتثبيتًا، وتوفيقًا للخير وحفظًا من الشر، والأمن من الأعداء.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

قال السعدي: «في هذا دليل على أن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره».

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

طلب فتية أهل الكهف من الله أن يجعل لهم من ذلك العمل رشداً، مع كونه عملاً صالحًا، فما أكثر ما يقصر الإنسان فيه، أو يرجع على عقبيه، أو يورثه العجب والكبر.

والمراد: أصلح لنا أمرنا كله ويسره لنا، واجعلنا من الراشدين المهتدين، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبيَّن تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، فقال:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

أي: ألقينا عليهم النوم في الغار حين دخلوه، فناموا سنين كثيرة وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

عباد الله:

وقد ذكر - تعالى - الجارحة التي هي الآذان - التي منها يكون السمع - لأنه لا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع، وفي الحديث: «**ذلك رجل بال الشيطان في أذنه**» أي: استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾.

قال ابن عاشور :الضرب على الآذان كناية عن الإنامة، وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.

وقال الدميري: هذا من فصاحات القرآن التي أقرت العرب القصور عن الإتيان بمثله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾.

ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل، لنرى أيَّ الفريقين من أصحاب الكهف، أدق إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟

قال بعضهم: يوماً أو بعض يوم، وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

عباد الله:

من ثمرة الإيمان أن أصبح الكهف الضيق الذي لا يعد لسكنى: منشوراً بالرحمة والتهيئة والارتقاء، فاعلم أن الأمر كله لله، وأن الأمور بحقائقها، لا بما يراه أهل الدنيا منها. وقولهم هذا دليل على اعتمادهم وتوكلهم على الله ﷻ.

وكان من حفظهم وصيانتهم ما قصه الله ﷻ عن المحل الذي ناموا فيه، فقال:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾.

أي: ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ولا يقع شعاعها، وهذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال.

وفيها أن الله ﷻ يسخر المخلوقات لعباده الصالحين.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

وإذا غربت تقطعهم وتعدل عنهم جهة الشمال، والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها، كرامة لهم من الله لئلاَّ تؤذيهم بحرها فتفسد أبدانهم بها.

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: في متسع من الكهف وفي وسطه، بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار، ولا في آخره، وليطرقهم الهواء والنسيم، فلا تؤذيهم حرارة الشمس، ولا ينقطع عنهم الهواء.

وذلك الصنيع الذي فعلناه بهؤلاء الفتية وأرشدناهم إليه، من دلائل قدرة الله الباهرة التي يُعتبر بها، فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يتقلبون لأكلت الأرض أجسامهم.

ثم ذكر الله حالهم وهم في الكهف نائمين، فقال تعالى:

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾.

أي: لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم، والحال أنهم نيام. ومن عنايتنا بهم، نقلبهم من جانب إلى جانب.

قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، ولو لم يقلبوا لأكلت الأرض أجسامهم.

ذكر بعض العلماء أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم، لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة كان أبقى لها.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حفظ عباده الصالحين بحفظه، والصلاة والسلام على نبينا محمد على آله وصحبه.

أما بعد:

عباد الله:

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: تأمل قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ ففيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، فلو طلق، أو قال: في ذمتي لفلان كذا، لم يثبت؛ لأنه لا قصد له. وفي تقليبهم، وعدم استقرارهم على جنب واحد فائدة بدنية، وهي توازن الدم في الجسد .

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾.

وكلبهم الذي صاحبهم، مادٌّ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته. والوصيد: فناء الكهف، وقيل: عتبته أو بابه .

قال القرطبي :إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله ـ تعالى ـ بذلك في كتابه ـ جل وعلا ـ، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين . بل في هذا تسلية وأنس

للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل .

قال ابن كثير:

«وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد كأن جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب» .

ولما ذكر ـ تعالى ـ حفظهم في الأرض، ذكر حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره عليهم، قال تعالى :

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

أي: لو شاهدتهم ـ يا محمد ـ وهم على تلك الحالة، لفررت منهم هارباً رعباً منهم، وذلك لما ألقى الله عليهم الهيبة، فرؤيتهم تثير الرعب حتى لا يصل إليهم أحد ولا تمسهم يد لامس، إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون، وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلها الله سبباً، فلم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة، والدليل أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره.

والحكمة من تقديم الفرار على الرعب أنه: قد يعترض الإنسان ما يخيفه فيفُرّ منه وينتهي الأمر، وقد يفر مما يرهبه ويبقى الرعب ساكناً في قلبه؛ لذا أتبع التولي فراراً بالامتلاء رعباً.

هذا وصلوا...

٧ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله، أحمده وأشكره، واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله وراقبوه في السر والنجوى.

عباد الله:

لا نزال نتفيأ ظلال وفوائد من سورة الكهف؛ حيث إن الله بعث أصحاب الكهف من رقدتهم فاحتاجوا إلى الطعام.

قال تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

الاحتراز عن الأمور الضارة، وكتمان السر الذي تضر إذاعته ضرراً عامـاً أو خاصّـاً، كل ذلك من كمال العقل.

ثم بعد ذلك ذكرت الآيات نهاية قصتهم وأنهم عثر عليهم: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١].

---

(١) سورة (الكهف)، الجزء الثاني.

أي: قال الذين لهم الأمـر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ نعبد الله فيه ونتذكر أحوالهم وما جرى لهم، وهذا لا يجوز في شريعتنا وذم النبي ﷺ فاعله، ولا يـدل ذكرهـا هنا على عدم ذمها فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢].

﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢].

الواو حالية عاطفة تفيد التوكيد والتحقيـق، لأن الواو تأتي عند تباعد معنى الصفات للدلالة على التحقيق والاهتمام.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم يقل: رجمـًا بالغيب، بل سكت، فهذا يدل أن عددهم سـبعة وثامنهم صوابـًا علـى كلبهم؛ لأن الله عندما أبطـل القولين الأولين، وسكت عن الثالث، صار الثالث صوابـًا.

قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٢].

روي أنـه - عليـه الصلاة والسـلام - سـأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال، وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شـيء من العلم.

قال تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ [الكهف: ٢٦].

قدم البصر على السمع هنا لأن الحديث عن أصحاب الكهف الذين فروا من قومهم لظلمة الكهف لئلاّ يراهم أحد لكن الله يراهم.

عباد الله:

بعد أن ذكر ﷻ قصة أصحاب الكهف وكيف اجتمعوا على طاعة الله، وتعانقت قلوبهم وتآلفت أرواحهم على الحب في الله، واجتمعت كلمتهم على نصر دين الله. دعا ﷻ نبيه إلى أن يصبر نفسه مع أولياء الله المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فقال تعالى:

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

في هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فرطًا عليه.

وجاءت الآية بصيغة الجمع ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ شخص واحد كفيل بأن يخرجك من الجماعة الصالحة، وأهل الخير جماعة مترابطة عكس أهل الأهواء.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يقل لا تطع من أسكتنا لسانه، بل قال: ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾. وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان.

ذكر الله ﷻ في سورة الكهف أربع فتن: الفتنة في الدين (أهل الكهف)، وفتنة المال (صاحب الجنة)، وفتنة العلم (موسى والخضر)، وفتنة السلطان (ذو القرنين).

وهنا الفتنة الثانية في قوله تعالى:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ [الكهف: ٣٢].

قال ابن كثير: جاءت أن هذه القصة بعد أمر الله ـ تعالى ـ لنبيه أن يصير نفسه مع ضعفاء المؤمنين، خلافاً لكبراء قريش، الذين تكبروا عن الجلوس معهم، فكان عاقبتهم الخسار كما كان عاقبة صاحب الجنتين .

ثم ذكر ﷻ مثلاً محسوساً ملموساً لحال الدنيا ونهايتها، فقال تعالى:

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ [الكهف: ٣٩].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الحديث: «ما أنعم الله ﷻ على عبد نعمة في أهل ومال وولد، فيقول ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيها آفة دون الموت، وقرأ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾» [أخرجه أبو يعلى والبيهقي والطبراني وغيرهم].

﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾.

قال قتادة: (وتلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر).

ثم ذكر مثلاً لهذه الدنيا الفانية، فقال تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

عباد الله:

شبه الله - سبحانه وتعالى - الدنيا بالماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل؛ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضارّاً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا لكن مع قرينة الصفة للمال والبنين، لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقر فلا تتبعوها نفوسكم.

قيل: تقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق لأذهان الناس، ولأنه يرغب فيه الصغير والكبير.

بعد التذكير بحقيقة الدنيا وزوالها، انتقلت المشاهد إلى ذكر القيامة وأهوالها، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

إنما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ ماضياً بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾ وهما مستقبلان، للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك.

قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟ وقد اشتكوا من العدل لا من الظلم .

قال قتادة: اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه. وقال عون بن عبد الله: ضج ـ والله ـ القوم من الصغار قبل الكبار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب . وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة؟

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن حكمة الله ورحمته: أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

عباد الله:

وتنتقل الآيات إلى زمن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن مكن الله له في الأرض ونجاه من فرعون وجنوده جرت له قصة عجيبة مع الخضر، أبان فيها عَزَّوَجَلَّ أن العلم كله بيده: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال الخطيب البغدادي: إن فيما عاناه موسى من الدأب والسفر والصبر على العلم، مع محل موسى من الله وموضعه من كرامته وشرف نبوته: دلالة على ارتفاع قدر العلم، وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع لمن يلتمس منه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه بثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفر إلى ربه.

تعالى ـ، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين .

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

قال القرطبي: دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط .

وردت: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]. بالقرآن للمؤمنين خاصة.

يقول نوح: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨] بينما ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨] تستعمل مع الكافر والمسلم .

وفي تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم؛ فإن صفة الرحمة صفة ملازمة للمعلم والمربي.

والعلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. وعلم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

عباد الله:

عندما أمر الله رسوله ـ في سورة الكهف ـ أن لا يقول لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا بعد أن يقول: إن شاء الله، بين له القدوة في فعل أخيه موسى حين قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا﴾ [الكهف: ٧١].

فيه دلالة على أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، وغير مالكة للصبر على احتماله؛ لأن موسى عليه السلام وعد الخضر أن يصبر على ما يراه منه، فلما رأى ما رأى أنكره عليه.

وهذا الإنكار من موسى على الخضر هو دأب الأنبياء في إنكار المنكر وعدم السكوت عليه.

قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا﴾ [الكهف: ٧١].

أي: لم يصبر موسى عليه السلام لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها.

قال موسى عليه السلام حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل (لتغرقنا) فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحد فيها يقول: (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم.

قال موسى للخضر لما خرق السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. وقال له لما قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

فما الفرق بينهما؟ (الإمر) أهون من (النكر) وقد لا يكون منكراً كالنكر، وإنما يتعجب منه ومن الغرض منه. والنكر هنا أشد؛ لأنه فعل منكر قد وقع وهو قتل الغلام، بخلاف خرق السفينة فإنها لم تغرق بذلك.

حين أنكر موسى على الخضر خرق السفينة، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وحين عاد موسى إلى الاعتراض على الخضر، وأنكر قتله للغلام - بعد أن أكد للخضر أنه لن يعود للاعتراض عليه - قال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] فزاد لفظه ﴿لَّكَ﴾؛ ليفيد التأكيد في بيان عدم صبر موسى على علمه، وهكذا عادة العرب: تزيد في التأكيد كلما زاد الإنكار.

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

استدل بهذه الآية طائفة من العلماء على أن الغلام كان بالغاً، واستدل آخرون بنفس الآية على أنه لم يكن بالغاً. فالذين قالوا:

إنه لم يبلغ، فاستدلوا بوصف النفس بأنها: ﴿زَكِيَّةً﴾؛ أي: لم تذنب، واحتج من قال: إنه بالغ، بقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ فهذا يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على أنه بالغ، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفسه، ولا بغير نفس.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

قال الخضر لموسى معاتباً مذكراً: ألم أقل لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى من أفعالي مما لم تحط به علماً؟

قال المفسرون: وقره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطب، فلما خالف في الثاني واجهه بقوله: ﴿لَّكَ﴾ لعدم العذر هنا، ويعود موسى لنفسه ويجد أن خالف وعده مرتين، فبادر عليه السلام بالاعتذار.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان: إما لأنه لم يكن نسي، ولكنه رجح تغيير المنكر العظيم ـ وهو قتل النفس بدون موجب ـ على واجب الوفاء بالالتزام، وإما لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرر الاعتذار به.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا......﴾.

قال السيوطي :فيه أن صنع الجميل لا يُترك مع اللئام.

هذا وصلوا...

٨ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آ له وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أمته.

أما بعد:

فاتقوا الله حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، واعلموا أن أجسادكم على النار لا تقوى.

عباد الله:

لا نزال نتفيأ ظلال سورة الكهف ونتدبر آياتها ومواعظها، وذكرنا في الخطبة السابقة قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر.

ومن أدب الخضر مع الله عَزَّ وَجَلَّ القيام بحقه وحسن الأدب في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وأما الخير فأضافه إلى الله بقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فنسب المرض إليه والشفاء إلى الله، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا

(١) سورة (الكهف)، الجزء الثالث.

لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ثم ذكر له سبب قتله للغلام، فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

أي: وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً فاجراً، وكان أبوه وأمه مؤمنين، وفي الحديث: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً**» [رواه مسلم].

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

أي: فخفنا لو بقي الغلام حيّاً، أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه، أو يجبرهما على ذلك، فقتله؛ لأن الله ـ تعالى ـ أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره، سلامة لدين أبويه المؤمنين.

قال مطرف بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] إنا لنعلم أنهما قد فرحا به يوم ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو عاش لكان فيه هلاكهما، فليرض رجل بما قسم الله له، فإن قضاء الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه، وقضاء الله لك فيما تكره خير من قضائه لك فيما تحب.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

عباد الله:

تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعًا من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.

قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحًا خيراً من ذلك الكافر، وأقرب برّاً ورحمة بوالديه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملها على الكفر والطغيان.

وقيل: أقرب رحمًا: أي ابنة بشفقتها وحنوها.

ثم ذكر ما الذي دفعه إلى بناء الجدار وإقامته، فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾.

أي: وأما الحائط الذي بنيته وأقمته دون أجر، والذي كان يوشك أن يسقط، فقد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لغلامين يتيمين في القرية التي فيها الحائط، حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

أي: وكان والدهما صالحًا تقيّا، فحفظ الله لهما الكنز لصلاح الوالد، وفيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم.

قال القرطبي: ففيها ما يدل على أن الله ـ تعالى ـ يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده، وإن بعدو عنه، وقد روي أن الله ـ تعالى ـ يحفظ الصالح في سبعة من ذريته .

قال ابن كثير: فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشتمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم .

قال المفسرون: إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع .

قيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء.

وقال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم .

عباد الله:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فيه فوائد منها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وذريته وما يتعلق به، ومنها أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرهما، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾.

فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار لئلاّ يضيع ويفقد.

وفي قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

أسند الإرادة هنا إلى الله، لأنها في أمر مغيب مستأنف لا يعلم ما يكون منه إلا الله، وأسند الخضر إلى نفسه في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] لأنها لفظة عيب.

فتأدب بأن لا يسندها إلى الله، وذلك كقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

أي: هذا فعلته رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما. ما فعلت يا موسى ما رأيت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، وإنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالديِّ الغلام، وولدي الرجل الصالح.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي: ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها، وعارضت فيها، قبل أن أخبرك عنها.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: من فوائد قصة موسى مع الخضر: أن من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم، فإنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه .

في سورة الكهف قال الخضر في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٥]، وفي قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ [الكهف: ٨١]

وفي بناء الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾ [الكهف: ٨٢] فلماذا غير في نسبه الأفعال في كل واحدة؟ لما كان المقصود عيب السفينة قال: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، فأضاف إرادة العيب لنفسه لا إلى الله تأدباً معه، ولأن نفس العيب مفسدة.

ولما قتل الغلام قال: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ بلفظ الجمع، تنبيها على أن القتل كان منه بأمر الله، وله حكمة مستقبلية، ولأنه مصلحة مشوبة بمفسدة.

ولما ذكر السعي في مصلحة اليتيمين قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، فنسب النعمة لله لأنها منه، ولأنها مصلحة خالصة.

عباد الله:

وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر قاعدة عظيمة في الرضا والاستسلام للقضاء والقدر فإن الإنسان لا يعلم ما وراء الحجب وما في غيب الله، وأمر المؤمن كله له خير.

تأمل في قول ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧– ٨٨].

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: إذ لما ذكر الشرك بدأ بتعذيبه ثم ثنى بتعذيب الله، ولما ذكر المؤمن بدأ بثواب الله أولاً، ثم بمعاملته باليسر ثانياً؛ لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، بخلاف الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة.

ومن فوائد الآية أن من قدر على إعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته.

قال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون على ما هم عليه، بل يحبسون حتى يعلم انكفاف شرهم، ثم يطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

لما كان صعود السد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه جاء الفعل قصيراً ليجانس النطق الزمن.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠٠- ١٠١].

قال ابن القيم: وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره، والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً، ثم يسري منه إلى العين.

قال تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ [الكهف: ١٠٠].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:وجاء كلمة ﴿وَعَرَضۡنَا﴾ نكرة، والمعنى: عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب .

ومن الحكم في ذكر ذلك: أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف من ذلك اليوم، ويستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، أحمده - سبحانه- وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، له الحمد في أولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، حمى حمى التوحيد، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، فأظهر الله به دينه على الدين كله ولو كره المشركون، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

عباد الله:

وبعد الحديث في السورة عن أحوال المفتونين بالهوى، الغارقين في الضلالة، كان مسك ختام السورة بشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

الإنسان ملول بطبعه، قد يمل الدار الأنيقة ويحب أن ينتقل من دار إلى دار أخرى، والجنة على خلاف ذلك ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

العمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا» [أخرجه الإمام أحمد].

وختمت السورة بإعلان التوحيد: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

هذا وصلوا...

٩ الخطبة الأولى(١)

الحمد لله لطف بعباده المؤمنين، ودلهم وبصرهم الطريق الحق المبين، وأشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وأشهد أن نبينا محمداً الصادق الأمين، أرسله الله رحمة للناس أجمعين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

عباد الله:

سورة المؤمنون من السور المكية التي تؤصل وتؤكد على توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة، وتذكر بالرسالة وتجلي البعث والجزاء والحساب، وسميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون»؛ تخليداً لهم وإشادة بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم .

وقد جاء في الحديث، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، وأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسري عنه، فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا**

---

(١) سورة (المؤمنون).

ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا» ثم قال: **«أنزل عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»** ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات» [رواه الترمذي].

قال - تعالى - في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

وفي الآيات أهم صفات المفلحون، وهو إتقان العمل ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]، والمداومة عليه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] وهما سر النجاح، وأساس الفلاح في كل الأمور.

ولأن من أعظم موانع الخشوع: كثرة اللغو، والحديث الذي لا منفع فيه؛ ذكر ﷻ من صفات المؤمنين إعراضهم عن اللغو، بعدما ذكر خشوعهم، فقال: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ أَفْلَحَ قَد ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ – ٣].

عباد الله:

ثم ذكر - تعالى - الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته، فذكر - تعالى - في الآيات اللاحقة، أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾.

اللام جواب قسم، أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة استلت من الطين وخلاصته، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي: ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منيّاً ينطف من أصلاب الرجال، في مستقر متمكن هو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك .

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (سلت، وأخذت من جميع الأرض ولذلك جاء بنو آدم على قدر الأرض : منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك) .

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ ثم صيرنا هذه النطفة ـ، وهي الماء الدافق ـ دماً جامداً يشبه العلقة بعد أربعين يوماً من النطفة.

ثم بعد أربعين يوماً، جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

عباد الله:

جاءت كلمة ﴿خَلَقْنَا﴾ نكرة لتدل على أن لكل إنسان في هذه الدنيا خلقاً خاصاً، فما من إنسان في الدنيا يشبه إنساناً آخر شبهاً تاماً في شكل أذنيه أو عينيه أو بشرته، أو غرائزه أو أفكاره أو انفعالاته، لأن لكل إنسان خلقاً آخر، ولأن بين كل إنسان وإنسان فروقاً خَلْقية وخُلُقيه لا يمكن أن تتوحد توحداً تامّاً بين أي إنسانين بالدنيا .

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

أي: صيرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن.

وسترنا تلك العظام باللحم، وجعلناه كالكسوة لها وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح، فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب.

قيل: جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرته، وغرائب حكمته لا يحيط بها وصف الواصفين .

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

فتعالى وتعاظم الله في قدرته وحكمته، أحسن الصانعين صنعاً.

ولما ذكر ـ تعالى ـ الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته، ذكر دلائل الإيمان في الآفاق في خلق السموات والأرض، وكلها أدلة ساطعة على وجود الله، وكثيراً ما يذكر ـ تعالى ـ خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

أي: أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة، وبقدر ما يكفيهم للمعيشة، لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به .

عباد الله:

ثم ذكر ﷻ من النعم التي امتن بها على عباده:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١ – ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] أمر الرسل بالأكل من الطيبات فيه ردٌّ على الغلاة الذين يمتنعون منها، وفيه ردٌّ على الجفاة الذين لا يقتصرون عليها.

وقد قَرَن الله بين أكل الطيبات وعمل الصالحات فأكل الحلال الطيب مما يعين العبد على فعل الصالحات، كما أن أكل الحرام أو الوقوع في المشتبهات مما يثقل العبد عن فعل الصالحات.

ولما ذم - تعالى - المشركين وتوعدهم. وذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، وعقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾.

أي: هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون، وخوفهم نابع أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله - تعالى -، وخوفًا على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحق من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب

لهـــم الكف عمـا يوجـب الأمر المخـوف مـن الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه.

ثم ذكر تعالى الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

أي: يعطون العطاء من زكاة وصدقـة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعـال الخير والبر، وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم.

قال الحسـن: إن المؤمن جمع إحسـانًا وشـفقة، وإن المنافق جمع إسـاءةً وأمنـًا، وقد كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمـل وإكمالـه وإتقانـه، ثم يهتـمون بعـد ذلك بقبـوله، ويخافون من رده.

قال سـهل بـن عبد الله: إنما خـوف الصديقين من سـوء الخاتمة عند كل خطـرة، وعند كل حركة وهـم الذين وصفهـم الله تعالى بقولـه: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة.

يقول الحسن: يعملون ما يعملون من أعمال البر، وهم يخافون ألا ينجيهم ذلـك من عـذاب ربهم، إن المؤمن جمع إحسـانًا وشـفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنـًا.

أيها المسلمون:

والله ـ سبحانه ـ وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ومن تأمل أحوال الصحابة ﵃ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن. ودافعهم إلى ذلك العمل الصالح:

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

وذلك لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة، ولاعتقادهم وعملهم ويقينهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب .روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ فقال لها: «**لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق، ومع ذلك يخاف الله ﷻ**» [رواه ابن ماجه].

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، هم الذين يسابقون في الطاعات والأعمال الصالحات لنيل أعلى الدرجات، دأبهم المسارعة إلى كل عمل صالح .

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

أي: هم الجديرون بالخيرات، والسابقون إليها، قد بلغوا ذروتها . وترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن .

فالصفة الأولى: دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات .

والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف والتقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله الوصول إليها .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

قال ابن العربي: هذا دليل على أن المبادرة إلى الأعمال الصالحة؛ من صلاة في أول الوقت ـ وغير ذلك من العبادات ـ هو الأفضل، ومدح الباري أدل دليل على صفة الفضل في الممدوح على غيره.

ثم قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

أي: اسلك مسلك الكرام، ولا تلحظ جانب المكافأة، ادفع بغير عوض، ولا تسلك مسلك المبايعة، ويدخل فيه: سلم على من لم يسلم عليك، والأمثلة تكثر.

قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣ – ٩٥].

وفي قصة إلياس إنباء بأن الرسول عليه أداء الرسالة ولا يلزم من ذلك أن يشاهد عقاب المكذبين ولا هلاكهم، وذلك في الرد على المشركين الذين قالوا كما ذكر تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

ثم جاء في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وما دام الشيطان هو الذي يهمز الإنسان كما يهمز الراكب الدابة لتسرع، فليحذر المسلم من الأمور التي يرى نفسه مندفعًا إليها بقوة شديدة خشية أن تكون من همز الشيطان.

بارك الله لي ولكم....

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد ذكر تعالى من أحوال أهل النار أنه:

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

الكالح: هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه. والنار والعياذ بالله تحرق شفاههم حتى تتقلص عن أسنانهم، كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].

قال السعدي: وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر: اشتغالهم بالاستهزاء بالمؤمنين، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة.

عن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيم

في الصيد على فرسه يركضه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة.

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾.

قال ابن كثير: «الغفر: معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال».

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

عباد الله:

هذه الآية فيها حذف لكي تفيد العموم، فقد حذف المفعول له لكلمة: ﴿اغْفِرْ﴾ والمفعول به لكلمة: ﴿وَارْحَمْ﴾ فلم يقل: رب اغفر الذنوب للعباد، وارحم الناس، بل أطلقها إطلاقًا ليكون طلب المغفرة عامًا لجميع الذنوب، وليكون الدعاء عامًا لجميع الخلائق.

وفيه دليل على أن ذلك الفريق الذي كانوا يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين، موفقون في دعائهم ذلك، ولذلك أثنى عليهم به، وأمر به نبيه ﷺ لتقتدي به أمته في ذلك.

وقد أوصى سفيان الثوري رجلاً فقال: إياك أن تزاد بحلمه عنك جرأة على المعصية، فإن الله لم يرضَ لأنبيائه المعصية والحرام والظلم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

ثم قال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ثم أجملها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

عباد الله:

بدأت سورة المؤمنون بـ ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. وانتهت بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وبين الآيات يتمعن القارئ في صفات المؤمنين، ويسارع ويجتهد ليكن منهم. ويحذر الكافرين ويتولى عنهم .

فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

فتأمل - عبد الله - في الصفات التي جعلت أولئك المؤمنين يفحلون، وتأمل أواخر هذه السورة لتدرك لم لا يفلح الكافرون؟ !

هذا وصلوا وسلموا...

١٠ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركًا فيه، دلنا على أحسن الأخلاق وأفضل الآداب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أرجو النجاة بها يوم الحساب، وأشهد أن نبينا محمد عبده ورسوله وصفيه وخليله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله والصحب الكرام.

أما بعد:

فاتقوا الله ﷻ وراقبوه في السر والعلن، واعلموا أنكم مجازون بأعمالكم، موقوفون لحسابكم يوم لا ينفع مال ولا بنون.

عباد الله:

سورة النور من السور المدنية. وسميت سورة النور بهذا الاسم لما فيها من إشعاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والأخلاق الفاضلة والآداب الاجتماعية، ففي أولها أحكام الزنى والقذف والزجر عن ذلك، ثم آداب الاستئذان على البيوت وعلى النبي ﷺ وعلى أهل البيت، التي هي قبس من نور الله على عباده، وفيض من فيوضات رحمته وجوده.

وهذه السورة الكريمة فيض رباني يلامس أخلاق الأمة وفضائلها ويحذر من سفاسف الأمور ورذائلها، فقد عالجت جانبًا من أهم

---

(١) سورة (النور)، الجزء الأول.

الجوانب الاجتماعية هي مسألة الأسرة وما يحفها من أخطار، وما يعترض طريقها من عقبات ومشكلات، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار، هذا عدا عما فيها من آداب سامية، وحكم عالية، وتوجيهات رشيدة، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة يقول لهم: علموا نساءكم سورة النور .

قال القرطبي: مقصود السورة ذكر أحكام العفاف والستر.

وقد جاء في هذه السورة آداب الاستئذان الثلاثة:

الأول: استئذان الأجانب لبعضهم على بعض، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الثاني: استئذان الأقارب لبعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الثالث: في الولاة والأمراء والكبراء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

ومما جاء في السورة قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

قال ابن تيمية: نهى عن التهاون في إقامة العقوبات عمومًا، والفواحش خصوصًا؛ لأن مبناها على المحبة والشهوة، فيزين الشيطان انعطاف القلوب على أهلها، حتى يدخل كثير من الناس في الدياثة وقلة الغيرة، وربما ظن أن هذا رحمة ولين جانب بهم ومكارم أخلاق، وإنما ذلك مهانة وضعف إيمان، وإعانة على الإثم والعدوان، وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر؛ وتدخل النفس به في الدياثة، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من المعلوم أن ألم العلاج النافع ، أيسر وأخف من ألم المرض الباقي.

عباد الله:

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ [النور: ٢] قدم ذكر الزانية على الزاني لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكينا .

والزنا قبيح منهما لكنه من المرأة أقبح لحيائها فبدأ بها .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

قال ابن كثير: وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك.

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ثم قال ـ تعالى ـ بعد ذكره أحكام القذف: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

في الآية تذليل لما مرَّ من الأحكام العظيمة المشتملة على التفصيل والرحمة منه، والمؤذنة بأنه تواب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته ـ تعالى ـ إذ وضع الشدة موضعها والرفق موضعه، وكف بعض الناس عن بعض.

وبعد ذكر تعالى حادثة الإفك قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

فيه تشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء. وإنما جعلت الألسن آلة للتلقى مع أن تلقي الأخبار بالأسماع، لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع . . وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالأخبار به بلا ترو ولا تريث.

قيل: وإن كان التلقي بالآذان لكن الله ذكر التلقي بالألسن بمعنى أنها لا تمر على الأذن وتسمع وتعي بل تأتي مباشرة من لسان المتحدث وتنقل من لسان المستمع.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: هلا ظنوا الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمن على أخيه قوله عائب ولا طاعن.

قال ابن كثير: هذا تأديب من الله - تعالى - للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

عباد الله:

روي أن امرأة أبي أيوب قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال : نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك.

قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم؛ إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء

المعلوم يكون علمه في القلب ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب.

﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾.

وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك. والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم؛ لأنه وقوع في أعراض المسلمين، وفيه الزجر البليغ عن التهاون في إشاعة الباطل، أو إتيان بعض الذنوب على وجه التهاون بها .

وقد عاتبهم ـ تعالى ـ على ثلاثة أشياء :

الأول: تلقيه بالألسنة؛ أي السؤال عنه .

والثاني: التكلم به .

والثالث: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم .

وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب؛ لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم .

ثم قال ـ سبحانه ـ في تأديب آخر بعد الأول، الآمر بظن الخير :

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

عتاب لجميع المؤمنين، أي: وهلا إذا سمعتم ـ أيها المؤمنون ـ كلام أهل الإفك كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له، وتقولوا : لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد .

﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذب واضح، أعظم الجرم. وهو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب .

ثم ذكر ﷻ تأديبًا ثالثًا لمن سمع شيئًا من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فلا يكثر منه ولا يشيعه، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: ومحبة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويج أسبابها، وهكذا. وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة في بلاد الإسلام من الحجاب والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها وحشمتها وحيائها .

وفي هذا وعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة فكيف بإظهاره ونقله.

عباد الله:

والعاقل هو الذي يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر معايب الغير ليشيعها ـ والعياذ بالله ـ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

قال السعدي: وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً؛ لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أتى بأداة ﴿مِن﴾ الدالة على التبعيض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والخاطب، ونحو ذلك.

عباد الله:

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فلا ينبغي للمؤمن أن يترك التوبة في كل حال، فإنه لا يخلو من سهو أو تقصير في حقوق الله - تعالى -.

وحد التوبة: الندم، وهي في عرف الشرع : الرجوع من شر إلى خير، وشرطها :

الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، أي عدم الإصرار على المعصية. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وينبغي أن يكون الندم على تفريطه في حق الله ﷻ وإقدامه على المعصية، وإن كان الندم من حيث أضرّ ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة.

وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب؛ فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحت بشروطها، وهو محتاج بعد معاودة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة.

والتوبة لا يجب قبولها على الله عقلاً، لكن جاء إخباره ـ تعالى ـ عن أشياء أوجبها على نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وظاهر هذه النصوص قبول توبة التائب، وهي إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله بقبول التوبة.

وقد ورد النص هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧] بأداة الحصر﴿إِنَّمَا﴾، ففيه حذف مضاف تقديره: إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده .وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟**»قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»، ثم سكت قليلاً ثم قال: «**يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله؟**» قال: الله ورسوله أعلم . قال : «**أن لا يعذبهم**» [رواه البخاري ومسلم].

فهذا كله اتم معناه: ما حقهم على فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله ـ تعالى ـ شيء عقلاً؛ ولأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق ـ سبحانه ـ خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم، فلا يصلح أن يوصف بوجوب شيء عليه ـ سبحانه ـ.

وقد ذكرت الآية هنا لقبول قيدين: ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾، و ﴿مِن قَرِيبٍ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي مقابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ أي من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت. وقال الله ـ تعالى ـ حكاية عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والمراد هنا ظلم النفس، وعلى هذا فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل، أدى إلى المعصية وارتكاب ما لا يليق بالعاقل، لا عدم العلم.

وقد روي عن الصحابة والتابعين أخبار كثيرة يقوي بعضها بهذا المعنى؛ روي عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة.

وروي عن مجاهد قال: كل من عصي ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، أحمده وأشكره والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

عباد الله:

جاء في السورة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

عطف على جملة: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١] عطف خاص على عام للاهتمام به؛ لأنه قد يخفى أنه من خطوات الشيطان، فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه ممن يتعذر عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة .

لا تكن سبباً في منع أرزاق الناس، إذا أردت أن تؤدب أحداً أدبه بأي طريقة مشروعة إلا أن تمنعه رزقه، لأنه لو كان منع الرزق سائغاً لساغ في حق مسطح، لكن الله ـ جل وعلا ـ عاتب الصديق رضي الله عنه فيه .

ثم توعد عز وجل فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾.

أي: يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة، ولم يخطر ذلك بقلوبهن.

وذكرهن بالغافلات وصف لطيف محمود يجسد المجتمع البريء، والبيت الطاهر الذي تشب فتياته على الفضيلة والستر والحشمة، لا يعرفن الأثم، أنهن غافلات عن ملوث الطباع السافلة، والأخلاق المستنكرة.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: المتصفات بالإيمان، مع طهارة القلب.

﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة. واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين.

وقيل: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر.

قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولهم مع اللعنة، عذاب هائل، ولا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة.

هذا وصلوا...

١١ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله ولي الصالحين، ولا عدوان إلى على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وأشهد أن نبينا محمد عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آهل وصحبه أجمعين، أما بعد:

فاتقوا الله ﷻ وتوبوا إليه يغفر لكم من ذنوبكم.

عباد الله:

لا نزال نتفيأ ظلال سورة النور، وما فيها من الآداب والأحكام والفوائد. لا نزال عباد الله نتفيأ آداب وأحكام سورة النور وقد ذكر ـ تعالى ـ بالدليل القاطع، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر، وقد جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه، فلو لم تكن عائشة طيبة؛ لما كانت زوجة لأفضل الخلق صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذلك الطيبات من النساء

---

(١) سورة (النور)، الجزء الثاني.

للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا كالدليل على براءة عائشة؛ لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾.

قال الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب»: فالغالب أن الله يُقيض الرجل الخبيث للمرأة الخبيثة والطيب للطيبة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: أولئك الفضلاء منزهون مما تقول أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان، ولهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنان النعيم.

قال ابن كثير: وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

لما حذر ـ تعالى ـ من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات، أرشد ـ تعالى ـ إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده.

ووضحت السورة الآداب الشرعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة، كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء والأجنبيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة

المسلمة والبيت المسلم من العفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله، صيانة لحرمتها، وحفاظًا عليها من عوامل التفكك الداخلي، والانهيار الخلقي، الذي يهدم الأمم والشعوب، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

وفي ذلك من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلاً على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلي الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على الأخوة الإسلامية.

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢٨].

قال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله:

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾.

﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿تَسۡتَأۡنِسُوا﴾ لا يراد به مجرد الاستئذان، وإنما المراد به معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر ورغبتهم بزيارته.

عباد الله:

والحكمة في تشريع أدب الاستئذان؛ هي الحيلولة بين النظر وبين عورات الآخرين، ولهذا أوصى ﷺ الزائر أن لا يستقبل الباب بوجهه بل يجعله عن يمينه أو شماله.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أي: الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم، وسلامة صدوركم، وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب، فإذا نهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك .

ثم وجه الخطاب للمؤمنات، فقال تعالى :

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات .

قال المفسرون: أكد - تعالى - الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم، فقال:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

أي: كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة التي جرت العامة بلبسها لا بد لها منها، قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ولم يقل: إلا ما أظهرن منها .

قال ابن كثير: أي: لا يظهرن شيئًا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا للضرورة.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها. يدخل فيها جميع البدن، أي: وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على فتحات صدورهن مغطيات وجوههن ليكمل سترهن، ولئلاَّ يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول؛ لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

عباد الله:

قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

ولا يضربن بأرجلهن الأرض، لئلاّ يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض. قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله - تعالى - عن ذلك؛ لأنه من عمل الشيطان. ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يفضي إلى المحرم، أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة منع منه، وإذا كانت المرأة منهية عن الضرب بالأرجل خوفاً من افتتان الرجل بما يسمع من صوت خلخالها ونحوه فتغطية الوجه وستره من باب أولى؛ لأنه موضع الجمال والفتنة.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: أيهما أعظم فتنة أن يسمع الرجل خلخالاً بقدم امرأة لا يدري ما هي؟ وما جمالها؟ ولا يدري أشوهاء هي أم حسناء؟! أوأن ينظر إلى وجه سافر جميل، ممتلئ شباباً ونضارة، وحسناً وجمالاً وتجميلاً بما يجلب الفتنة، ويدعو إلى النظر إليها؟

عباد الله:

ثم أرشد - تعالى - إلى الآداب الرفيعة من غض البصر، وحفظ الفروج، حماية من الانزلاق في الرذيلة، أو الوقوع في الزنا لأن حفظ الفرج ثمرة طبيعية لغضِّ البصر.

قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

الأمر للجميع رجالاً ونساء بغض البصر.

قال العلماء: غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

أحداهما: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صَرّف بصره عنه وتركه لله ـ تعالى ـ.

والثانية: نور القلب وصحة الفراسة.

والثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته.

قال ابن القيم: غض البصر يكسب القلب نوراً، فقد أمر ـ سبحانه ـ بغض البصر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. ثم قال إثر ذلك ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ذلك الغض والحفظ أطهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في الفجور، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعوا إليه. وجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

بدأ - تعالى - بالأزواج لأن اطلاعهم يقع على أعظم من الزينة، ثم ثنى بالمحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بسبب ما في نفوس البشر، فالأب والأخ ليس كابن الزوج، فقد يُبدي للأب ما لا يبدى لابن الزوج .

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

التوبة وظيفة العمر، ولهذا قال الله ﴿جَمِيعًا﴾ ولم يستثن أحداً فإن الذنب لا يكاد يسلم منه أحد، ولما ذكر الله - تبارك وتعالى - هذه الأحكام علم - جل وعلا - أن عباده وإن حرصوا على الامتثال بها، إلا أنه لن يخلو أن يقع منهم شيء، فدلهم - جل وعلا - على ما يجبر ذلك الكسر وهو التوبة إلى الله - سبحانه وتعالى - .

قال الشيخ بكر أبو زيد: تأمل هذا السر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله - تعالى - لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمها غائباً، ذكر - سبحانه - من فاتحتها إلى تمام الآية الثالثة والثلاثين: أربع عشرة

وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف جماعة المسلمين، وهذه الوسائل الواقية: فعلية، وقولية، وإرادية .

وبعد أن ذكر ﷻ وجوب غض البصر وحفظ الفرج وقاية من الزنا، وأمرت الآيات النساء بستر أجسامهن وعدم إبداء زينتهن إلا لطائفة خاصة من الرجال، أمر ﷻ بإنكاح الأيامى، وهم الذين لا أزواج لهم من الصنفين حتى يشتغل كل منهما بما يلزمه فلا يلتفت إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٢- ٣٤].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ [النور: ٣٥] شبه الله - تعالى - الزجاجة بالكوكب، ولم يشبهها بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يلحقها الخسوف.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

قال السعدي: «وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه فلا يعطيها إلا من يحب».

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد:

فقد جاء في السورة قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

﴿رِجَال﴾. قال ابن كثير : فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

قال القرطبي: خص الطير بالذكر من جملة الحيوان، لأنها تكون بين السماء والأرض، فتكون خارجة عن حكم من في السماء والأرض .

قال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

وقد ذكر الله ﷻ أنهن قواعد تمشي على أربع لكبر سنها، وغير متبرجات بزينة، ومع ذلك قال﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

قال القرطبي: إنما خص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأبيح لهن مالم يبح لغيرهن، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن .

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وهذا الحرج المنفي عن الأكل من هذه البيوت كل ذلك إذا كان بدون إذن .

قال السعدي: والحكمة فيه معلومة من السياق فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج .

وذكر بيوت القرابات، وسقط منها بيوت الأبناء، قال المفسرون: ذلك لأنها داخلة في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته.

﴿أَو صَدِيقِكُمْ﴾.

قال القرطبي: قرن الله ﷻ في هذه الآية؛ الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لصيق.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة الجهنميين، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠ – ١٠١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وصفها بالبركة؛ لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه.

هذا وصلوا...

١٢ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولاند ولا شبيه ولا نظير، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فأوصيكم - ونفسي- بتقوى الله ﷻ فإنها العدة اليوم المعاد ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

عباد الله:

سورة الفتح سورة مدنية، سميت «سورة الفتح» لأن الله ﷻ بشر المؤمنين بالفتح المبين، وهو فتح مكة، وآيات السورة تُعنى بجانب التشريع شأن السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

وذكر - تعالى - في السورة الكريمة «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة»، وبه تم

---

(١) سورة (الفتح).

العـــز والنصـــر والتمكيـــن للمؤمنين، ودخـــل النـــاس في ديـــن الله أفواجًا .

وقـــد نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هـــذه السورة قـــال - صلوات الله وسلامه عليـــه: «لقـــد أنزلت عليَّ الليلة ســـورة هي أحبُّ إلي من الدنيـــا ومـــا فيهـــا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]» [رواه أحمد].

ومما ورد في فضل بعض آياتها، ما يلي: ما جاء عند مسلم عن قتادة، أن أنس بن مالك، حدثهم، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: «**لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا**».

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. قال: الحديبية قال أصحابه: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥].

وقـــد قرأها ﷺ يـــوم فتح مكة، كما روى ذلك عبـــد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتـــح يُرجِّـــع، وقال: «لـــولا أن يجتمع النـــاس حولي لرجعت كمـــا رجَّع» [رواه البخاري].

عباد الله:

تفتتـــح هـــذه الســـورة بهذا الفيـــض الإلهي على رســـوله ﷺ فتـــح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ – ٣].

يقول الزهري عن فتح مكة: فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه .

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة الآف .

قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

قال ابن عاشور: فمن جنود السماوات؛ الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر، والريح التي أرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي يوم بدر فثبت الله به أقدام المسلمين، ومن جنود الأرض جيوش المؤمنين وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبي ﷺ يوم فتح مكة مثل بني سليم، ووفود القبائل الذين جاءوا مؤمنين طالعين دون قتال في سنة الوفود .

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤].

وقدمت المغفرة هنا بقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

عباد الله:

ذكر ـ تعالى ـ الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمي والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ [الفتح: ١٧].

ثم يذكر الله في آيات عظيمة جهاد المؤمنين، و«بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور .

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

اللام موطئة لقسم محذوف، أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك - يا محمد - «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية .

وسبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتل، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حرباً، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب، وأطلقوا عثمان، وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية، وقد سميت «بيعة الرضوان» ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزن والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم، فأنزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية.

وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل، وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سطرت في الكتاب المبين.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

قال ابن تيمية: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه سبحانه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

قال ابن عاشور: وفائدة وصف المغانم بجملة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريباً، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح.

والآية دليل على أن الله ـ جل جلاله ـ قد يثيب المؤمن رزقاً في الدنيا على العمل الصالح، ولا يحط ذلك من درجة فضله، ويجعل ذلك من أطيب وجوه، ألا ترى أن الغنائم أطيب وجوه الكسب، وأمطر الله على نبيه أيوب حين عافاه من بلائه جراداً من ذهب لم تبتذله الأيدي .

عباد الله:

من بلاغة القرآن الكريم وإعجاز لفظه: أنه أتى بلفظ بكة كاسم من أسماء مكة المكرمة في سورة آل عمران، وأتى بلفظ مكة في سورة الفتح .

فكان لفظ بكة مناسباً لسياق الآيات التي جاء في سورة آل عمران، والتي تتحدث عن الحج، لأن لفظ بكة من ألبك. أي: الزحام.

ولفظ مكة الذي جاء في سورة الفتح مناسباً لسياق نصرة النبي وعودته لتلك البقاع التي طرد منها فجاء لفظها كما اشتهرت به (مكة).

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

في الآية تفضيل للصحابة، وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام في قوله:

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية، فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن كقوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

في الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية .

قال الرازي: وصف الله الصحابة بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] ولم يقل: (يبتغون أجراً) ففيه اعتراف منهم بالتقصير، وطمع بالفضل الإلهي الذي لا منتهى ولا حد له، والذي هو أعظم من الأجرة التي يستحقونها على عملهم.

بارك الله لي ولكم....

الخطبة الثانية

الحمد لله كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى والرسول المجتبى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه النجباء، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

عباد الله:

تكرر ذكر اسم نبينا محمد ﷺ في أربعة مواضع من كتاب الله - تعالى -:

الأولى: في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الثانية: في سورة الأحزاب. في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الثالثة: في سورة محمد، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢].

الرابعة: في سورة الفتح، في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد جُمعت في هذا البيت:

وفي الفتح والأحزاب جاء محمد ... محمد أيضاً ثم جاء بعمران

وما نودي ﷺ في القرآن باسمه العَلم، بل نودي بالنبوة تكريمًا وتشريفًا له، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، بينما بقية الأنبياء ينادون بأسمائهم: يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، وذلك لعظم منزلته، وشرف مكانه، ورفيع درجته ﷺ.

وآخريات سورة الفتح جمعت كل حروف اللغة العربية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

هذا وصلوا...

١٣ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله وأطيعوه، واتبعوا أمره ولا تعصوه، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

عباد الله:

سورة الحجرات سورة مدنية، وسميت «سورة الحجرات» لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ، وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ، والسورة على وجازتها جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنيَّة الفاضلة، وفيها الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب، حتى سمَّاها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».

---

(١) سورة (الحجرات).

وفي السورة منهج التعامل مع الناس: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا﴾، ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾، ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾، ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ﴾، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾، ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، ﴿وَلَا يَغۡتَب﴾، وكلها قواعد أساسية في صدق التعامل.

عباد الله:

لما أثنى الله على أصحاب رسوله في خاتمة سورة الفتح جعل سورة الحجرات في تكميل إيمانهم وتأديبهم، فبدأ بالأدب مع الله، ثم مع رسوله، ثم مع المؤمنين، سواء من حضر منهم، ومن غاب، ومن تلبس بفسق.

ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدَّب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألا يُبرموا أمراً، أو يُبدوا رأيًا، أو يقضوا حكمًا في حضرة الرسول ﷺ، حتى يستشيروه، ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة .

قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١ – ٢].

قال القاضي أبو بكر العربي: حرمة النبي ﷺ ميتًا كحرمته حيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع

من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به .

ذكر بعض المفسرين: أن هذا الأدب وعاه السلف حيث تجاوزوا به شخص رسول الله ﷺ إلى كل شيخ وعالم من العلماء، احتراماً لهم، حيث أنهم يحملون ميراث رسول الله ﷺ وهو سنته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

قال السعدي: أدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به خيراً.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما قبض رسول الله ﷺ أنكرنا أنفسنا، وكيف لا ننكر أنفسنا، والله - تعالى - يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].

قال ابن كثير رحمه الله: وفي قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾ وتقديمها ﴿فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تتضمن تشريفاً، فقد اختصكم الله عز وجل بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفاً بما يوجبه وجود هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وإنما كان الفاسق معرضـًا خبره للريبة والاختلاق، لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسـه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر، يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام، ويقوي جرأته على ذلك دومـًا إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله.

عباد الله:

جاء في السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب.

قـال محمـد بن منـاذر: كنت أمشـي مع الخليل بـن أحمد، فانقطـع نعلي، فمشيت حافيًا، فخلع نعليه وحملها يمشي معي، فقلت له: ماذا تصنع؟ فقال: أواسيك في الحفاء.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإنمـا اختيـرت الرحمـة؛ لأن الأمـر بالتقوى واقـع إثر تقريـر الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.

وفي قولـه تعالـى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

دل ذلـك على أن عـدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

عباد الله:

حذَّرت الآيات من السخرية والهمز واللمز، ونفَّرت من الغيبة والتجسس، والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذَّرت من الغيبة، جاء النهي في تعبير رائع عجيب، في غاية الإبداع، في صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه، ويا له من تنفير عجيب، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، ورب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

ولا يسخر نساء من نساء، فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة، وأفراد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾.

أي: ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب

السوء، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفس واحدة.

قال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمل عيّاباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً، وفي الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

أي: ومن لم يتب عن اللمز والتنابز، فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب.

قال الزمخشري: ينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رأى رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهانة بمن عظمه الله.

ثم تتوالى الآيات الكريمات وهي تبني المجتمع على الأسس الفاضلة، فتعالج ما يضمره. قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن عثيمين: إذا قال قائل: ما هي مناسبة الغيبة لمثل هذا المثل؟ قلنا: لأن الذي تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه، ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره في حال وجوده فإن ذلك لا يسمى غيبة بل يسمى سبّاً وشتماً.

عباد الله:

ولما كان مقتضي الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، أمر - سبحانه - بما يبقي هذه العلائق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: ابتعدوا عن التهمة والتخون، وإساءة الظن بالأهل والناس، وعبَّر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه، بل ويتأمل ويتحقق، وفي الحديث عنه ﷺ، أنه قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه البخاري].

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

أي: إن في بعض الظن إثم وذنب، يستحق صاحبه العقوبة عليه.

قال العلماء: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وأن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواه، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب .

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم، والتجسس قد يكون هو الحركة اللاحقة للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات. ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه .

والغيبة الذكر بالعيب في ظهر الغيب، قال ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**» [رواه مسلم].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال :

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

أي: فكما تكرهون الغيبة طبعاً، فاكرهوها شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا، وقد شبَّه ـ تعالى ـ الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان ـ فضلاً عن كونه أخاً،

وفضلاً عن كونه ميتاً، وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. فإنه - تعالى - كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم، والاعتراف بالخطأ، لئلاً يقنط الإنسان من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

عباد الله:

لما كان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ يدل على استواء الناس في الأصل؛ لأن أباهم واحد وأمهم واحدة، وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب تطاول بعض الناس على بعض، بين - تعالى - أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا، أي يعرف بعضهم بعضا، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب .

وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل.

وهكـذا كتاب الله ﷻ يربي المسـلم علـى الخلق الرفيع والأدب الجم، فمثلاً في:

الصوت: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

المشية: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

النظرة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

والطعام: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهكذا آداب عامة وشمائل متوالية.

بارك الله في ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، أحمده وأشكره، واثني الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله:

وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ومنزلته؛ وذلك في الرد على الأعراب الذين قالوا: آمنا، وظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاؤوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين الآيات حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص، والجهاد والعمل الصالح. قال تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: زعم الأعراب أنهم آمنوا، قل لهم - يا محمد -: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي.

والآيـة نزلت في نفر من بني أسـد، قدموا المدينة في سـنة مُجدبة، وأظهروا الشـهادتين، وكانـوا يقولـون لرسـول الله ﷺ: أتينـاك بالأثقـال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول ﷺ، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسـلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

وفيها وجوب شهود منَّه الله على العبد أن وفقه لطاعته، وخطورة تسرب شيء من الشعور يمنه العبد على الله، وهذا محبط للعمل ومذهب للإيمان.

وقد يكون الشعور بالمنة على الله ـ نعوذ بالله من ذلك ـ إما بالقول أو بالعمل، وأخطـره ما كان بالقلب لصعوبة الإحسـاس به ودقتـه وخفائه، فهو أخطر من الرياء.

وذكر ابن القيم: أن من شـروط قبول العمل شـهود المنـة، أي منة الله على العبـد، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشـهود المنـة يكون قبل العمل وأثناء العمل وبعده.

ومعنى اسم المنان: هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال .

هذا وصلوا...

١٤ الخطبة الأولى [١]

الحمد لله لطف بعباده المؤمنين، دلدهم وبصرهم الطريق الحق المبين، أشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وأشهد أن نبينا محمداً الصادق الأمين، أرسله الله رحمة للناس أجمعين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى. ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيُّها المسلمون:

بعَثَ اللهُ كلَّ نبيٍّ من أنبيائه؛ بمعجزةٍ وآيةٍ لقومِه، وأنزل على رسوله محمدٍ ﷺ؛ أعظم معجزة وأبلغ آية: إنه القرآن الكريم، كلام الله سبحانه؛ المنزل المحفوظ، تبيان لكل شيء، يهدي للتي هي أقوم. ما وعظ الواعظون بمثله، ولا أصاب الحاكم بدونه، ولا استدل العالمون إلا بنوره.

سمَّاه اللهُ تعالى موعظةً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) سورة (ق) الجزء الأول.

وهو الكتاب المحكَم: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

سورة «ق» سورة مكية جمعت من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي؛ حيث تتركز على إثبات البعث والنشور، حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد أوردته الآيات بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة. وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزّاً، وترج النفس رجّا، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

وقد وردت عدة أحاديث تبين مدى حرص النبي ﷺ على قراءتها في المجامع العامة، كالجُمع والإعياد لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

عن أم هشام بنت حارثة ابن النعمان رضي الله عنها قالت:«لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة،وما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس» [رواه مسلم].

قال ابن كثير رحمه الله: «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب».

ابتدأت سورة (ق) بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء.

قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مختلط وملتبس، وهو حال كل من ابتعد عن هدي القرآن؛ وكذب بالحق؛ وابتغي هديا غير هدي الله.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ [ق: ١ - ٤].

أي: قد علمنا بما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم وما تفرق من ذلك واختلط بالتراب، محقق وثابت، وهو مثبت في كتاب حافظ لذلك كله .

عباد الله:

وسماه الله حفيظًا، لأنه لا يدرس ما كتب فيه ولا يتغير ولا يتبدل. وفي الآية إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد. فالأنبياء عليهم السلام حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»، كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب لا تأكله الأرض، منه يركب الإنسان ويعاد خلقه.

قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

قال ابن عثيمين: وفي هذه الآية أن مما يفتح الله به على العبد في معرفة الأحكام الشرعية أن يكون مصدقاً موقناً، فكلما كنت مصدقاً موقناً فاعلم أن الله سيفتح لك ما لا يفتحه لغيرك، وعليه: فالواجب على المرء أن يقبل الحق فور علمه به لئلاً يقع في أمر مريج .

قال تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٨].

دعاهم إلى النظر في العالم العلوي ثم إلى السفلي، وأن ذلك تبصرة تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد .

فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم بين تعالى؛ ما يكون عند البعث والنشور، وهو الخلق الثاني، خلق البعث والإعادة، فيذكر بخلقه للإنسان؛ وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، بل يعلم وسوسة الصدور؛ مكنون القلوب مهما خفي؛ فكيف بالقول والعمل؟ فليأخذ المسلم أهبته، وليعد للموقف عدته، فمن عمل مثقال ذرة من خير أو شر وجده: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾.

لكن لا مفر ولا مهرب ولا محيد من الموت، فهو مصير كل حي. ومع شدته وكربته؛ فإن ما بعده أشد وأفظع؛ من أحوال القبر والبرزخ؛ والبعث والنشور والحساب؛ بعد النفخ في الصور.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

أيها المسلمون:

الله ﷻ حكم وقضى وأخبر أن المطر الذي ينزل من السماء مطراً مباركًا ولهذا كان ﷺ يسارع إليه، يحسر ثوبه عن ذراعه حتى يصيبه المطر ويقول: «**إنه حديث عهد بربي**».

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

ذكر الله النخيل ومنافعها، وفي الآية إشارة إلى جمال هيئتها، فضلاً عن حلاوة ثمرتها، مما يزيد الناظر بهجة ومتعة.

وخص النخل بالذكر لفضلها وشرفها، فهي أشرف الأشجار، وأهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه وأنيق جماله.

وشبه بها المؤمن، كما قال ﷺ: «**إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة**»؛ ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**لا يجوع أهل بيت عندهم التمر**».

قال ابن عاشور: وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم، وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى.

ثم ذكر - تعالى - كفار مكة بما حل بمن سبقهم من المكذبين من الأمم السالفة، وما حلَّ بهم من الكوارث وأنواع العذاب، إنذاراً لهم وإعذاراً فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾.

أي: كذب قبل هؤلاء الكفار، قوم نوح. وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود، رسوا نبيهم فيها، أي: دسُّوه فيها. ومن جملة من كذب قوم عاد وفرعون، وإخوان لوط، سمَّاهم إخوانه لأنه صاهرهم، وتزوج منهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾.

أي: وأصحاب الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، نُسبوا إلى الأيكة، لأنهم كانت تحيط بها البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضها على بعض. هو تُبْع اليماني ملك كان باليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

أي: جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم، وإنما جمع الرسل لأن من كذب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل. فوجب عليهم وعيدي وعقابي، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف، والمسخ، والإهلاك بأنواع العذاب.

والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصاب من كذب الرسل.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي: أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ وهو توبيخ لمنكري البعث، وجواب لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ومراده أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، فكيف يتوهم عجزنا عن البعث والإعادة؟ بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث والنشور.

وهذه الآية من براهين البعث؛ لأن من لم يعي بخلق الناس، ولم يعجز عن إيجادهم الأول، لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم إيكم أحسن عملا، وأشهد أن لا إله إلا الله الحي الواحد الفرد الصمد، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد نبه - تعالى - على سعة علمه، وكمال قدرته. وتحدثت الآيات عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد، تنتهي به بإلقائه في الجحيم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

أي: خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه.

والوسوسة الصوت الخفي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويحبس في ضميره من حديث النفس.

ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب، والمراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه.

قال ابن عاشور: وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان؛ التنبيه على سعة علم الله ـ تعالى ـ بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان، فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد.

هذا وصلوا وسلموا..

١٥ الخطبة الأولى [(١)]

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠– ٧١].

أما بعد:

فلا زلنا في قراءة لسورة (ق) التي كان نبينا محمداً ﷺ يقرأ بها من على المنبر يوم الجمعة.

---

(١) سورة (ق) الجزء الثاني.

وفي تتمة السورة قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

أي: حين يتلقى الملكان الموكلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات .

وفي الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه .

قال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فإذا علم العبد ذلك ـ مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه ـ زاد رغبة في الحسنات، وانتهاء عن السيئات .

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

أي: ما يتلفظ كلمة من خير أو شر، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه . حاضر معه أينما كان، مهيأ لكتابه ما أمر به، فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

ثم قال ـ تعالى ـ يصف مشهداً عظيماً، وموقفاً عصيباً :

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وجاءت هذا الغافل المكذب بآيات الله، غمرة الموت وشدته، التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً.

وإنما قال: جاء بالماضي لتحقق الأمر وقربه .

ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**» [رواه البخاري]. ومن سكرة الموت، إلى وهلة الحشر، وهول الحساب .

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾.

أي: ونفخ في القرن نفخة البعث الثانية، ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب، وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾.

أي: وجاء كل إنسان براً كان أو فاجراً، ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله.

قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾.

أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة، هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً، لقد كنت مكذباً بهذا تاركاً للعمل له. فأزلنا عنك الحجاب الذي على قلبك، وسمعك وبصرك في الدنيا. فبصرك اليوم قويٌّ نافذ، ترى به ما كان محجوباً عنك، لزوال الموانع بالكلية، ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال .

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾، فيقال له: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾.

عباد الله:

ففي هذا الموقف العصيب؛ تنشر الصحف؛ ويبصر الناس منازلهم؛ في الجنة أو النار، عندها يختصم أهل النار ويتحاجون؛ كما ذكر الله ذلك في مواضع من كتابه، وهنا قال:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾.

أيها المسلمون:

ثم يعود آخر السورة على جميع ما سبق بتوكيد للقضايا السابقة؛ من البعث والخلق ومصير الخلائق؛ وهلاك القرون السالفة وأحوال القيامة:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ۝٣٧ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ۝٣٨ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الصلاةَ وذكرَ اللهِ؛ من وسائل الصبر والثبات.

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

عباد الله:

بعد هذا الترهيب الشديد يأتي الترغيب، يقول ﷻ:

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ﴾.

أي: رجاع تائب مقلع يحفظ العهد ولا ينكثه.

وعندما يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ويقارنه بما في سورة الزمر ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قد يتوهم أن هناك تعارضًا. والرد على هذا: أن هناك فرقًا بين الذين اتقوا، والمتقين.

فالذين اتقوا هم الذين أحدثوا العقل، وهو التقوى، أما المتقون فهم العريقون في ذلك، فهم أعلى منزلة من الذين اتقوا، ولذا فقد اختلف الجزاء.

لما احتضر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تمثلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ببيت من الشعر، فكشف أبو بكر عن وجهه، وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

بارَكَ الله لي ولكم في القرآن والسنة، ونفعَنا بما فيهما من الآيات والحِكمة، أقول ما تسمعون، واستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على رسوله وعبده.

أما بعد:

فاتَّقوا الله أيها المسلمون لعلَّكم تُفلِحون، واستكثِرُوا من الصالِحات، فعمَّا قليلٍ أنتم راحِلُون: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

ثم ذكر - تعالى - من صفات المتقين :

﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

قال - تعالى - من خشي ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ لأن هؤلاء الصالحين إذا ذكروا رحمة الله خشوه لمعرفتهم بمغفرته وجوده وكرمه، فكيف إذا ذكروا جبروته وسطوته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧] ولم يقل: (استمع) لأن إلقاء السمع، أي: يرسل سمعه ولا يمسكه وإن لم يقصد السماع .

أي: تحصل الذكرى لمن له سمع، وهو تعريض بتمثيل المشركين بمن ليس له قلب وبمن لا يلقي سمعه .

وفي قوله ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إشـارة إلى مجرد الإصغاء لا يفيد ما لم يكن المصغي حاضراً بفطنته وذهنه .

وفي الآية ترتيب حسـن؛ لأنه إن كان ذا قلب ذكي يسـتخرج المعاني بتدبره وفكره؛ فذاك وإلا فلا بد أن يكون مسـتمعـاً مصغيـاً إلى كلام المنذر؛ ليحصل له التذكير.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين: إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه، فذلـك صاحب القلب، أو رجل لم يعقله بنفسـه بل هـو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤدبه فهذا أصغى، فـ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي :حاضر القلب ليس بغائبه .

عباد الله:

لا زلنا نتأمل ونتدبر في آيات سورة (ق).

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. أمره بما يسـتعين به على الصبر وهو التسـبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠].

وهي على هذا إشارة إلى الصلوات الخمس، فقبل طلوع الشمس: الصبح. وقبل الغروب: الظهر والعصر. ومن الليل: المغرب والعشاء.

قال الرازي: من السنة قراءة سورة (ق) في صلاة العيد، ومناسبة ذلك قوله ـ تعالى ـ فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

بعث وجمع وسوق يسير. فخروج المرء للعيد يوم الزينة ينبغي أن لا ينسيه خروجه إلى عرصات الحساب، ولا يكون في ذلك اليوم بطراً فخوراً، ولا يرتكب فسقاً ولا فجوراً.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

أي: استمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب.

التعبير بـ ﴿قَرِيبٍ﴾ للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرته جملة ﴿قَرِيبٍ﴾ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من مكان بعيد.

هذا وصلوا...

١٦ الخطبة الأولى [١]

الحمد لله يعلم السر وأخفى، يرى ويسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأشهد أن لا إله إلا الله العليم الحليم أحاط بكل شيء علما، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما مزيدا.

أما بعد:

فاتقوا الله حق التقوى، وعظم أمره، واجتنبوا نهيه، فإن السعيد من اتقاه وخاف لقاه فأحسن العمل وصدق في حسن الأمل.

عباد الله:

سورة المجادلة سورة مدنية، وتسمى سورة (قد سمع) وتسمى كذلك سورة (الظهار).

تصور الآيات في أولها حالة وقعت في بيت من البيوت يقبع في أطراف المدينة، ويتنزل الوحي ليتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة. والآيات وما جرى فيها من أحداث تملأ قلب المؤمن بوجود الله وقربه، وعطفه ورعايته، وكلآته وعنايته .

---

(١) سورة (المجادلة).

وقد نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله، وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً.

وفي السورة جملة من الأحكام التشريعية كأحكام الظِّهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وأحكام الولاء والبراء وعدم مودة الكافرين .

قال ابن عاشور في أغراض سورة المجادلة: «تعليماً لنساء الأمة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها».

وقد ورد اسم الجلالة (الله) في كل آية منها، ومجيء اسم الجلالة (الله) يغلب في مقام الأحكام، ومقام الإجلال والمهابة.

وختمت السورة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان، وأوثق عرى الدين. وجاء في السورة مدح للمؤمنين بعدم مولاتهم لمن حاد الله ورسوله .

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي: حقّاً لقد سمع الله قول المرأة التي تحاورك وتُراجعك الكلام في شأن زوجها وأمره، وما جرى بينهما.

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وتتضرع إلى الله ـ تعالى ـ في تفريج كربتها، وتظهر ما بها من المكروه.

قالت عائشة: - تبارك - الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أَكَلَ شبابي، ونَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

أي: ما تتراجعان به من الكلام والحديث، ماذا قالت لك، وماذا رددت عليها. هي وزوجها أوس بن الصامت أحد الأنصار .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾. لجميع الأصوات، سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه.

﴿بَصِيرٌ﴾. بمن يشكو إليه، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتها بالأمور الدقيقة والجليلة، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صيغ المبالغة في العلم بالمسموعات والمبصرات، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله - تعالى - سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها على وجه العموم.

عباد الله:

يؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى ﷻ الذي يكشف الضر ويرفع البلوى، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصابته فاقة، فأنزلها بالناس؛ لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل، أو غنى عاجل**» [صححه الألباني].

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب؛ فيما قد يعرض للإنسان، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

ومن الملاحظ أنه استعمل ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ الهمزة في حالتي الظهار والطلاق، ولم يستعملها في غيرها، وكأن ذلك لثقل الهمزة، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة، وهي حالات المفارقة .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وحذف متعلق ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ليعلم كل ما يتطلب الناس الإفساح فيه في الدنيا والآخرة من مكان أو رزق أو جنة عرضها السماوات والأرض.

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار معاملة بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل،

وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدراً في قلوب الأمة، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم، ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها.

ثم قال ﷻ في أدب من آداب المجالس: ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

قال الرازي: «إيصال أي خير إلى المسلم، وإدخال السرور عليه يوسع الله عليك خيرات الدنيا والآخرة ولا تُقيد بالتفسح في المجلس».

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من عمل بهذا القرآن تصديقاً بأخباره، وتنفيذاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه، واهتداء بهديه، وتخلقاً بما جاء به من أخلاق ـ وكلها أخلاق فاضلة ـ فإن الله ـ تعالى ـ يرفعه به في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم ومنبع العلم وكل العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

عباد الله:

قال بعض العلماء: المناسبة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم.

الثاني: أن التأدب بآداب المجالس من صفات أهل الإيمان والعلم.

الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه، فإنه لا يجتمع في قلب واحد حب الله وحب أعدائه.

ومعنى يوادّون: يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما.

وغرض الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارية مبالغة في النهي والتحذير.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: ولو كان المحادّون لله ورسوله أقرب الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوّة والبنوّة والأخوّة والعشيرة، وبدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأن بهم التعاضد، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

يعني: الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله. أثبت الإيمان ومكنه، وجمعه وجعله في قلوبهم، فهي قلوب مؤمنة موقنة مخلصة. وقوّاهم بنصر منه وتأييده على عدوّهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً؛ لأن به يحيا أمرهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبد الآبدين.

ثم قال تعالى: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

أي: قَبِل أعمالهم فرضي عنهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة.

وقدم ﷻ رضاه على رضاهم لأن رضا الله هو الأصل الذي بني عليه إرضاؤه لهم.

﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

أي: فرحوا بما أعطاهم الله عاجلاً وآجلاً، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة؛ لأنه أعظم النعم، وأجل المراتب.

قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله -تعالى-، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: جنده وخاصته، وأولياؤه الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، وفي إضافتهم إلى الله ـ سبحانه ـ تشريف لهم عظيم، وتكريم فخيم.

وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للذي للبعيد للدلالة على علو مقامهم ورفعتهم.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق الذكر والأنثى، من نطفة إذا تُمنى، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد:

فإن الله ﷻ خلق لنا في هذه الدنيا أزواجاً نسكن إليها، وجعل المودة والرحمة دوحة نستظل بها.

عباد الله:

عليكم بالوصية بالنساء خيراً امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقول الرسول ﷺ: **«استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»** [متفق عليه]، وعنه ﷺ أنه قال: **«اللهم إني أحرج حق الضعفين: اليتيم، والمرأة»** [رواه أحمد].

ومن الوصية بها إعطاءها حقوقها وعدم بخسها، فعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت»** [رواه أحمد]،

عباد الله:

ومن حقوق الزوجة تعليمها العلم الشرعي، وما تحتاج إليه من أمور العبادات، وحثها وتشجيعها على ذلك، يقول الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وقالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين» [رواه البخاري].

عباد الله:

ومن حقوق الزوجة معاملتها المعاملة الحسنة والمحافظة على شعورها وتطييب خاطرها، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إني أحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي، لأن الله ذكره بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾».

وكذلك المحافظة عليها من الفساد ومن موطن الشبه، وإظهار الغيرة عليها، وحثها على القرار في البيت.

ومن ذلك المحافظة على مالها وعدم التعرض له إلا بإذنها، فقد يكون لها مال من إرث أو عطية أو راتب شهري تأخذه من عملها، فاحذر التعرض له لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا وعداً ولا وعيداً إلا برضاها، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، وقد كان رسول الله ﷺ أميناً على مال زوجته خديجة فلم يأخذ إلا حقه ولم يساومها ولم يظهر الغضب والحنق حتى ترضيه بمالها! قال - تعالى- مُحذراً عن أخذ المهر الذي هو مظنة الطمع وهو من مال الزواج أصلاً: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ

تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١]، فما بالك بأموال زوجتك التي تكدُّ وتتعب لتجمعها. وأخذ المال منها ينافي قيامك بأمر القوامة، ووجوب النفقة عليها حتى وإن كانت أغنى منك، وليحذر الذين يتعدون على أموال زوجاتهم ببناء مسكن أو استثمار ثم يضع مالها باسمه ويبدأ يستقطعه، فإنه مال حرام وأخذ مال بدون وجه حق، إلا بإذن صاحبه.

عباد الله:

من حقوق الزوجة التي عدَّد زوجها، العدل بين الزوجات في البقاء والمكث مع كل زوجة والتسوية في المبيت والنفقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] وقد مال كثير من المعددين، والرسول ﷺ يقول: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل**» [رواه أحمد].

كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين زوجاته فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان - عليه الصلاة والسلام- يراعي العدل وهو في مرض موته حتى أذن له زوجاته فكان في بيت عائشة، وكان لمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ امرأتان فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء.

هذا وصلوا...

١٧ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله، فضل الشهور والأيام والليالي، على بعض، فجعل لنا عيداً في الأسبوع تقام فيه صلاة الجمعة، وأشهد أن لا إله إلا الله الحق المبين، وأشهد أن نبينا محمداً الصادق الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، فإنها وصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ﴾ [النساء: ١٣١].

عباد الله:

سورة الجمعة سورة مدنية، بيَّن الله - سبحانه وتعالى - فيها أحكام صلاة الجمعة التي فرضها على المؤمنين، وكان ﷺ يقرأ بها في صلاة الجمعة؛ وفي ثنايا السورة الإشارة إلى بعثة الرسول ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه رحمة للعالمين. وذكر الله ﷻ في السورة اليهود وانحرافهم عن شريعة الله.

سميت بسورة الجمعة لمجيء ذكر يوم الجمعة فيها، وهي: تذكير الأمة في هذا اليوم العظيم؛ بنعمة الله عليها بإرساله محمداً -

---

(١) سورة (الجمعة).

عليه الصلاة والسلام ـ، وأن الله قد جعله هداية لها بعد الضلال المبين الذي كانت تتخبط فيه. ولا شك أن هذا من أعظم القضايا في حياة المؤمن، التي لا ينبغي أن تغيب عن ذهنه، ولذلك شرعت قراءتها في صلاة الجمعة.

عن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى لنا أبو هريرة يوم الجمعة، فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الأخيرة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة. فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما في الجمعة.

قال تعالى في السورة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ينزه الله ويمجده ويقدسه وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده جميع ما في السموات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تدبيره.

عباد الله:

وصيغة المضارع في قوله ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجديد والاستمرار، فهو تسبيح دائم على الدوام.

﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي: هو الإله المالك لكل شيء، المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام.

﴿ٱلْقُدُّوس﴾ أي: المعظم المنزّه عن كل آفة ونقص، المتصف بصفات الكمال. فلا إله معه يدعى، ولا ولي معه ينادى.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: العزيز في ملكه، القاهر للأشياء كلها.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: في خلقه وأمره، وهذه الأوصاف مما تدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. هو الحكيم؛ لا يدخل في أحكامه ولا تشريعاته خلل ولا زلل، وليس لأحد أن يراجع أحكام الله أو ينتقصها أو يضعها للجدل، والله يحكم لا معقب لحكمه، بل الواجب التسليم والإذعان لها، والانقياد إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ولا يصلح لعباده سوى شرعه المطهر، ومن سخر بدينه أو شرعه أذله الله .

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وابتدئ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثني بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعقب بذكر تعليمهم الكتاب لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تبين لهم مقاصده ومعانيه .

قال ابن كثير: الأميون هم العرب ـ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال ـ تعالى ـ

في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به .

ثم ذكر ﷻ حال المسلمين بعد قضاء الصلاة، فقال:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

أمر بالجمع بين الابتغاء من فضله، وكثرة ذكره، ولهذا ورد فضل الذكر في الأسواق ومواطن الغفلة، كما جاء عن النبي ﷺ: **«من دخل سوقًا من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة»** [صححه الألباني].

وفي الآيات السابقة أمرهم ﷻ أولاً بالسعي لاجتماع للصلاة وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله. وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعًا لأمر الله ﷻ وطلبًا لبركة هذا الوقت.

عباد الله:

وفي يوم الجمعة أُمرنا بالعبادة: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وأُمرنا بطلب الرزق وهو عبادة لمن احتسب ذلك ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وأيام المسلم كلها عبادة.

كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف، فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

ثم أمر تعالى بذكره فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

قال الكرجي: «كلما أكثر المرء ذكر الله كان أزيد لفلاحه، وأجدر لنجاحه، وأقرب إلى النجاة من عذاب ربه».

ولما ذكر الله الدنيا والسعي لها قال: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

ولما تعلق الشأن الآخرة والعمل لها قال: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩].

في قول: «**اللهم افتح لي أبواب رحمتك**» عند دخول المسجد، و «**اللهم إني أسألك من فضلك**» عند الخروج منه حكمة، فقيل: لعل ذلك لأن الداخل طالب للآخرة، والرحمة أخص مطلوب له، والخارج طالب للمعاش في الدنيا، وهو المراد بالفضل، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال ابن القيم في زاد المعاد: (وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختصُ بها عن غيره، وقد اختلف العلماء هل هو أفضل أم يوم عرفه) وقد عد ابن القيم أكثر من ثلاثين مزية وفضل لهذا اليوم، ومن تلك الخصائص والفضائل:

أنه يوم عيد متكرر: فيحرم صومه منفرداً، مخالفة لليهود والنصارى، وليتقوى العبد على الطاعات الخاصة به من صلاة ودعاء وغيرها.

وأنه يوم المزيد، يتجلى الله فيه للمؤمنين في الجنة، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (يتجلى لهم في كل جمعة).

وأنه خير الأيام قال ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة**» [رواه مسلم].

فيه ساعة الإجابة: قال ﷺ: «**فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يُصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه**» [رواه البخاري ومسلم].

عباد الله:

وليوم الجمعة مزية فضل الأعمال الصالحة فيه: قال ﷺ: «**خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضًا، وشهد جنازة، صام يومًا، وراح إلى الجمعة، وأعتق رقبة**» [صححه الألباني في السلسلة الصحيحة]، والمراد: أن صيامه وافق يوم الجمعة بدون قصد.

وأنه يوم تقوم فيه الساعة: لحديث النبي ﷺ: «**ولا تقوم الساعة إلى في يوم الجمعة**» [رواه مسلم].

وأنه يوم تُكفر فيه السيئات: فعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طُهر، ويَدّهِنُ من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى**» [رواه البخاري].

عباد الله:

للماشي إلى الجمعة أجر عظيم: قال ﷺ: «**من غسَّل يوم الجمعة واغتسل ثم بكّر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها**» [رواه أبو داود].

والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما وزيادة ثلاثة أيام: قال ﷺ: «**من اغتسل ثم أتى الجمعة، فصلى ما قدّرِ له، ثم أنصت حتى يفرغ من خطبته، ثم يصل معه، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وفضل ثلاثة أيام**» [رواه مسلم].

والوفاة يوم الجمعة أو ليلتها من علامات حسن الخاتمة لقوله ﷺ: «**من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وُقِيَ فتنة القبر**» [رواه أحمد].

والصدقة فيه خير من الصدقة في غيره من الأيام، قال ابن القيم: (والصدقة فيه بالنسبة إلى سائر أيام الأسبوع كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى سائر الشهور. ثم قال: وشاهدتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه- إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت خبز أو غيره فيتصدق به في طريقه سراً.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، أنال عباده الصالحين من الخيرات، وأنزلهم رفيع الدرجات، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

ليوم الجمعة العظيم آدابٌ وسُننٌ منها:

استحباب أن يقرأ الإمام في فجر الجمعة بسورتي السجدة والإنسان كاملتين كما كان النبي ﷺ يقرؤهما، ولعل ذلك لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون من المبدأ والمعاد، وحشر الخلائق، وبعثهم من القبور، لا لأجل السجدة كما يظنه بعض المسلمين.

ويشرع فيه؛ التبكير إلى الصلاة: وقد ورد في الحث على التبكير والعناية به أحاديث كثيرة منها:

أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا صحفهم وجلسوا يستمعون الذكر، ومثل المُهَجِّر (أي المبكر) كمثل الذي يهدي بدنه، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة»** [رواه مسلم]. فجعل التبكير إلى الصلاة مثل التقرب على الله

بالأموال، فيكون المبكر مثل من يجمع بين عبادتين: بدنية ومالية، كما يحصل يوم الأضحى.

وكان من عادة السلف رضوان الله عليهم التبكير إلى الصلاة كما قال بعض العلماء: (ولو بكر إليها بعد الفجر وقبل طلوع الشمس كان حسنًا). و (كان يُرى في القرون الأولى في السحر وبعد الفجر الطرقات مملؤة يمشون في السرج ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد، حتى اندرس ذلك) وكان هذا الوقت يُعمر بالطاعة والعبادة وقراءة للقرآن وذكر الله ﷿ وصلاة النافلة، روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يصلي قبل الجمعة ثنتي عشرة ركعة. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يصلي ثمان ركعات. وأدركت إلى عهد قريب أحد العباد رحمه الله فكان يدخل الجامع الكبير بالرياض لصلاة الفجر ولا يخرج إلى بعد انقضاء صلاة الجمعة.

عباد الله:

ويشرع في يوم الجمعة؛ الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ قال عليه الصلاة والسلام: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خُلِق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفَّخة، وفيه الصَّعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**» [رواه أحمد].

وفيه؛ الاغتسال يوم الجمعة: لحديث الرسول ﷺ: «**إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**غُسل يوم الجمعة**

على كل محتلم، وسواك، ويمسّ من الطيب ما قدر عليه» [رواه مسلم].

واختلف العلماء في حكمه بين الوجوب والاستحباب والجمهور على الاستحباب فيستحب الاغتسال؛ إدراكًا للفضل.

وفيه؛ التطيب، والتسوك، ولبس أحسن الثياب، قال ﷺ: «**من اغتسل يوم الجمعة، واستاك ومسَّ من طيب إن كان عنده، ولبس أحسن ثيابه، خرج حتى يأتي المسجد، فلم يتخط رقاب الناس حتى ركع ما شاء أن يركع، ثم أنصت إذا خرج الإمام فلم يتكلم حتى يفرغ من صلاته، كانت لما بينها وبين الجمعة التي قبلها**» [رواه أحمد].

ويستحب قراءة سورة الكهف: لحديث الرسول ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين**» [رواه الحاكم]. ولا يشترط قرائتها في المسجد بل المبادرة إلى قراءتها ولو كان بالبيت أفضل.

وفيه؛ وجوب الإنصات للخطبة والحرص على فهمها والاستفادة منها: قال ﷺ: «**إذا قلت لصاحبك: أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب، فقد لغوت**» [متفق عليه].

ويجب الحذر من تخطي الرقاب وإيذاء المصلين: فقد قال النبي ﷺ لرجل تخطى رقاب الناس يوم الجمعة وهو يخطب: «**اجلس فقد آذيت وآنيت**» [رواه أحمد] وهذا لا يفعله غالبًا إلا المتأخرون.

أيها المسلم:

إذا انتهت الصلاة فلا يفوت أن تصلي في المسجد أربع ركعات بعد الأذكار المشروعة أو اثنتين في منزلك.

أما وقد انصرفت من المسجد وقد أخذت بحظك من الدرجات والخيرات إن شاء الله.. تأمل في قول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لطائف المعارف وهو يقول: (كان بعضهم إذا رجع من الجمعة في حر الظهيرة يذكر انصراف الناس من موقف الحساب إلى الجنة أو النار فإن الساعة تقوم في يوم الجمعة ولا ينتصف ذلك النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار) قاله ابن مسعود وتلا قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].

أخي المسلم: تَحَرَّ ساعة الإجابة وأرجح الأقوال فيها: أنها آخر ساعة من يوم الجمعة.. فادع ربك وتضرع إليه واسأله حاجتك، وأرِه من نفسك خيراً، فإنها ساعة قال عنها النبي ﷺ: «**إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً، إلا أعطاه إياه**» [متفق عليه].

هذا وصلوا....

١٨ الخطبة الأولى [(١)]

الحمد لله نصر عباده المؤمنين، ووفقهم لفعل الخيرات وجعلهم من الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله الحق المبين، وأشهد أن نبينا محمداً المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين. ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

عباد الله:

سورة المنافقون سورة مدنية، فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً واستقر فيها، وكثر المسلمون واعتز الإسلام بهم، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ليبقى جاههم، وتحقن دماءهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة.

---

(١) سورة (المنافقون).

وفي سورة الجمعة التي سبقت، ذكر فيها المؤمنون، وهذه ذكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون.

والسورة تؤكد على كشف المنافقين، وبيان حقيقتهم، وأبرز صفاتهم، لتكون بمثابة تحذير؛ من طائفة خطيرة تهدم الإسلام من الداخل، وتوضح للمؤمنين أن حصوننا مهددة من داخلها بهؤلاء المنافقين، ولعظم خطرهم وعدم انقطاعهم من المجتمع منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم؛ شرع التحذير منهم بشكل متكرر، بتلاوة هذه السورة في صلاة الجمعة .

وبعد أن ذكر الله ﷻ أوصافهم القلبية، ذكر أوصافهم الجسمية، لكثرة انخداع الناس بهم، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

وإذا رأيت هؤلاء المنافقين أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم ومناصبهم، تعجب من يراها لما فيها من الحسن والنضارة والرونق. وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم فتحسب أن قولهم حقّ وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم.

وقد كان عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء.

وأما المؤمنون فعكس هذه الصفات، حالهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم وكلامهم؛ لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم، أما بواطنهم فقوية عامرة ثابتة يؤدون بها

الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات ما لايستطيع المنافق مكابدته لضعف قلبه، لهذا قال عن المنافقين :

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

شُبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط، التي لا منفعة فيها، ولا تفهم، ولا تعلم، لخلوّهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: يظنون لجبنهم وفزعهم، والريب الذي في قلوبهم؛ كل نداء وكل صوت، أنهم يرادون بذلك، وكان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين. فاحذرهم ولا تأمنهم على سر؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار .

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ المنافق خائف ذليل، يترقب من أين يأتي الصوت .

عباد الله:

وعوائد الله ﷻ في المنافقين لم تتبدل ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦١].

ثم ذكر صفاتهم القبيحة، وقولهم:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧].

ظنوا أنهم لولا أموالهم لما اجتمع المسلمون لنصر دين الله! فمن أعجب العجب أن يدعي أحرص الناس على خذلان الدين، مثل هذه الدعوى، ولا يروج هذا إلا على من لا علم له بحقائق الأمور: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ثم قال - تعالى - حاثًّا على المسارعة إلى الخيرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالاً يلهي عن ذكر الله، لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها، بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد، ولأنها كما تشغل من ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضًا بالتذكير لكنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها.

وفي ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله، فوقعوا في النفاق، فمن علامات النفاق قله ذكر الله ﷻ. وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله ﷻ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما الحكمة من قراءة سورة المنافقون في الجمعة؟ مناسبتها ظاهرة، ومنها :

أ ـ أن يصحح الناس قلوبهم ومسارهم إلى الله ـ تعالى ـ كل أسبوع.

ب ـ أن يقرع أسماع الناس التحذير من المنافقين كل جمعة؛ لأن الله قال فيها عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤].

وجاء في السورة قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠].

قال السعدي: وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ليدل على أنه ـ تعالى ـ ما يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم الله الذي يسره لهم ويسر لهم أسبابه .

عباد الله:

حذر ﷻ من النفاق ومن صفات المنافقين في أكثر من ثلاثمائة آية، في سبع عشرة سورة، وأفرد لهم سورة كاملة في القرآن، حتى قال ابن القيم – رحمه الله تعالى –: كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم.

وفقد تميز عصرنا الحاضر بارتفاع أصوات المنافقين والمنافقات في أنحاء العالم الإسلامي، فأفردت لهم الصفحات، ودعوا إلى التحدث في المنتديات، واحتفلت بهم التجمعات، وسيطروا على

كثـير من وسـائل الإعـلام كما يلاحـظه القاصي والداني لفشو الأمر وظهوره.

وحال المنافقين ليس بجديد على أمة الإسلام.. فهم أعداء ألداء لهذا الدين منذ بعثة محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. يكيدون ويدبرون ويخططون ينفذون، وقد وصفهم الله ﷻ في سبعة وثلاثين موضعًا من القرآن، وسميت سورة كاملة باسم (المنافقون)، وأفاضت السنة النبوية المطهرة في ذلك الأمر العظيم وتوضيحه وجلائه.

ولأن الصراع بين الحق والباطل قائم إلى قيام الساعة، لا نزال نرى نفس الصفات تتوارثها الأجيال المنافقة زمنًا بعد زمن حتى وقتنا الحاضر، يقول الله عن صفة من صفاتهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]. فما أكثر المستمعين لحديثهم، المنصتين لهرائهم، المتابعين لإنتاجهم.. وهم يلبسون على الناس ويدعون الإصلاح والفلاح، كما كان فرعون يقول عن موسى نبي الله عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

والعجب أن يتولى ما لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة من المنافقين والمنافقات، إفساد الأمة ومسخها عن دينها ودعوتها إلى التحرر والإباحية والعفن والرذيلة. ومن تأمل في التاريخ القريب مثلاً في دول مجاورة، لوجد أن حثالة لا يزيدون عن المائة قوضوا

أركان الفضيلة ونزعوا الحجاب عن وجه المسلمة هناك، وأوردوا قومهم موارد الهلاك بإسقاط الحجاب والحياء والحشمة، حتى ظهرت المرأة متبرجة في الشارع والمكتب والمسرح، بل وشبه عارية على شاطئ البحر، ولقد كان لا يُرى لأمها وجدتها أظفراً أو خصلة شعر، حتى جاء هؤلاء فأسقطوا الحجاب شيئًا فشيئًا!!

وهكذا هم المنافقون في كل أمة وفي كل قطر يتحينون الفرص ويقطعون الطريق ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]!! هاهم يسيرون متكاتفين متماسكين يتواصون بالباطل ولهم جَلدٌ وصبر عجيب ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦].

وتأمل في حال المنافقين والمنافقات فهم أولياء بعض وقد ملؤوا الساحة ضجيجًا وعفنًا في الصحف، وعلى شاشة التلفاز، وفي بث الإذاعات إنه غزو عجيب لا تسلم منه خيمة ولا قصر، ولا امرأة ولا رجل، ولا طفل ولا شيخ، وتتقزز نفسك وأنت ترى تلك الكتابات والصورة التي يطل عليك منها شؤم المعصية وهي كغثاء السيل، وحاطب الليل يتبرأ منهم وهو خيرٌ منهم!! وحتى يكتمل الحديث وتتضح الصورة أورد بعضًا من صفات المنافقين حتى يكون المسلم على بينة من أمره، ولا يسلك مسلكًا خطيراً، وطريقًا وعراً، وهو تصنيف الناس بالظن والحدس والتوقع... بل أمامه ركائز يعتمد عليها ومنائر يسير على هداها، وليعرف المنافق برأسه وعينه متثبتًا متيقنًا. هم العدو فاحذرهم. ومن صفاتهم:

الكسل في العبادة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

والتخلف عن صلاة الجماعة، قال ابن مسعود: «**وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق**» [رواه مسلم].

والثانية: قلة ذكرهم لله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

وكذلك لمز المطوعين من المؤمنين والصالحين والنيل منهم. والاستهزاء بالقرآن والسنة، يقول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦].

ومن صفاتهم؛ الوقوع في أعراض الصالحين غيبة وحقداً، يقول الله تعالى عنهم: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله عالم الخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمده تعالى على ما أنعم وأشكره على ما هدى وقوَّم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله وكونوا مع الصادقين.

عباد الله:

لا نزال نذكر من صفات المنافقين تحذيراً منهم وبعداً عنهم. فمن ذلك مخالفة الظاهر للباطن. وهذه المسألة تدور عليها جميع المسائل، يقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. فما أكثر ترديدهم عن صلاح هذا الدين وشريعته والحرص على هذا المجتمع، وما إن ترى أفعالهم حتى تتمثل لك الآية تفضح خبيئة نفوسهم وبواطن قلوبهم.

ومن صفاتهم؛ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، يقول الله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وتأمل آراءهم في الحجاب والتحرر والعمل وغيرها!!

ومن صفاتهم؛ عدم الفقه في الدين، فتجد الكثير يملك معلومات عجيبة وتفصيلات دقيقة وجزئيات صغيرة في أمور الدنيا، دقيقها وجليلها، كبيرها وصغيرها، ولكن إذا سُئل عن المسح على الخفين سكت!! يقول الله عنهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

وهذه تسع من ثلاثين أو تزيد من صفاتهم، ولكن حسبك من العقد ما أحاط بالعنق.. وبواحدة من هذه تعرف من يبارز الحرب والعداء لله ولرسوله.. ولعظيم الأمر وخطورته ولأنهم بؤرة فساد وموطن سوء جعلهم الله في الدرك الأسفل من النار، وهم أشد عذاباً من الكفار والمشركين ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]!! وقد قال بعض السلف: لو كان للمنافقين أذناب لما استطعنا السير في الشوارع والطرقات من كثرتها!! وفي أمة الإسلام اليوم أكثر من ذلك، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم أرنا في المنافقين عجائب قدرتك، اللهم فافضحهم شر فضيحة، اللهم لا ترفع لهم راية، وأجعلهم لمن خلفهم عبرة آية.

هذا وصلوا...

١٩ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فاتقوا الله وراقبوه، فإن التقوى فلاح ونجاة.

عباد الله:

سورة الطلاق سورة مدنية، تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع وغير ذلك من الأحكام، تتميماً للأحكام المذكورة في سورة البقرة، وأمرت المؤمنين عند تعذر استمرار الحياة الزوجية إلى أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية.

وفي السورة تسلية للزوجة وتطييب لخاطرها وجبر لكسرها، وتكرر الأمر بتقوى الله في السورة خمس مرات بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلاً يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، حين يقع الطلاق وتشح الأنفس، وتنفصم عرى الزوجية.

---

(١) سورة (الطلاق)، الجزء الأول.

وقد ذكر الله التقوى وأثرها بين آيات الطلاق لكثرة ما فيها من الانتصار للنفس، وقصد الإضرار وتعدي الحدود، فأي الزوجين اتقى الله فله المخرج ولو بعد حين.

قال - تعالى - في مطلع السورة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

أي: يا أيها النبي، ويا أيها المؤمنون، إذا أردتم تطليق النساء، وقد نادى النبي ﷺ أوّلاً؛ تشريفًا وتعظيمًا له، ولأنه السيد المقدم، ثم خاطبه مع أمته.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حيث يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله به.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

أي: مستقبلات لعدتهنّ، أو قبل عدتهنّ، والمراد: أن يطلقوهنّ في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يُتركن حتى تنقضي عدتهنّ، فإذا طلقوهنّ هكذا فقد طلقوهنّ لعدتهنّ.

عن ابن عمر: أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «**ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلّقلها النساء**» [رواه النسائي].

وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلاّ تطول عليها العدة فتتضرر؛ ولأن حالة الحيض منفرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر، لئلاّ يحصل من ذلك الوطء حمل، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وذلك ضرر ظاهر .

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

أي: اضبطوها واحفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدّة، وهي ثلاثة قروء كاملة لئلاّ تختلط الأنساب، والخطاب للأزواج. وأمر بذلك لما يبنى عليه من الأحكام في الرجعة والسكنى والميراث، وغير ذلك .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

أي: خافوا الله رب العالمين فلا تعصوه فيما أمركم، ولا تضارّوهنّ، وخافوه في حق الزوجات المطلقات. لا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن، ويلزمن بيوتهن التي طلقها زوجها وهي فيها.

وأضاف البيوت إليهنّ لبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة، وفيه دلالة على القرار في البيوت، وأن هذا بيتها تدبر شئونه وترعى أحواله.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ تحذير من التساهل في أحكام الطلاق.

عباد الله:

ونهى الزوجات عن الخروج أيضًا، فقال:

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

أي: لا يجوز لهن الخروج منها حتى تنقضي عدتهن، أما النهي عن إخراجها فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه، وكذلك صيانة المرأة، فلا يجوز لها المبيت خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف، ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ إلا إذا فعلن فاحشة الزنى، وقيل: هي البذاءة في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها.

عباد الله:

وهذه الأحكام والشرائع التي بيّنها لعباده، هي حدوده التي حدّها لهم، لا يحلّ لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

بأن لم يقف معها، ولم يأتمر بها، بل تجاوزها أو قصر عنها فقد بخسها حقها بإيرادها مورد الهلاك، وفي هذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة.

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

أي: لا تعرف أيها السامع، ماذا يحدث الله بعد ذلك الطلاق من الأمر؟ لعلها إذا بقيت في بيتها أن يؤلف الله بين قلوبهما فيتراجعا، فيكون ذلك أيسر وأسهل، والواقع يشهد بذلك كثيراً.

وفي الآية قاعدة في الحياة وفي الحياة الأسرية خاصة؛ تمنع الاستعجال وغلق الأبواب، فقد تحتاج يومًا للولوج منها، فدعها مشرعة مفتوحة.

ولقدرة الله ﷻ وسرعة الفرج وزوال الشدة بأمره ـ سبحانه ـ وردت كلمة (أمر) في هذه السورة ست مرات، منها قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، فله الأمر وبيده تصريف الأمور كيف يشاء ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾.

قال ابن القيم: «فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

عباد الله:

وتستمر الآيات في بيان أحكام الطلاق، والرفق فيه، وعدم المضارة، ولزوم التقوى، قال تعالى:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

أي: فإذا قاربن انقضاء أجل العدّة وشارفن آخرها، وقاربن ذلك. فراجعوهنّ إلى عصمة النكاح بحسن معاشرة، وصحبة جميلة، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارّة لهنّ.

والإمساك بالمعروف: هو إحسان العشرة وتوفية النفقة، من غير قصد لمضارة في الرجعة لتطول عليها العدة .

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لهن على أخذ شيء من مالهن، مع إيفائهنّ ما هو لهنّ عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهنّ. والفراق بالمعروف: هو أداء الصداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقهن .

قال العز بن عبد السلام: في حسن المصاحبة والمفارقة حفظ للوداد، وبعد من البغضاء والعداوة، إذ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها .

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: اشهدوا على الرجعة إن راجعتم، أو المفارقة إن فارقتم،

قطعًا للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة. رجلين مسلمين من أهل العدل والاستقامة، لأن في الإشهاد المذكور، سدّاً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه .

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

أي: أيها الشهداء . ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقصان، تقرّبًا إلى الله على الوجه الحق دون مراعاة أو محاباة للمشهود له، أو المشهود عليه.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

أي: من يتق الله بالوقوف عند حدوده التي حدّها لعباده. يجعل له مخرجًا وطريقًا مما وقع فيه، من الهموم والكروب والمحن، وهذا من جملة ثواب من أطاع الله واتبع شرعه، بأن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة.

قال ابن مسعود: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يعطيه، وهو يمنعه، وهو يبتليه، وهو يعافيه، وهو يدفع عنه.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

أي: بعد انتهاء المحنة وانجلاء البلاء تأتي المنح والهبات والعوض والأعطيات. يسوق إليه رزق من وجهٍ لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه ولا يشعر به، فمن طلق ثم أشهد عند المفارقة على انقضاء العدة، أو عند المراجعة، يجعل الله له مخرجًا

ومخلَصًا، وإنما الضيق على من خالف أحكام الله في الطلاق والرجعة.

عباد الله:

وردت في سورة الطلاق كلمة التقوى وما في معناها أكثر من أربع مرات، وذلك لأهمية التقوى حال الخلاف وشح الأنفس، وربما صدر من البعض هجر محرم أو غيبة، أو ظلم يطال أحد الزوجين أو الأولاد، أو غير ذلك من أنواع الأذى.

قال ابن تيمية في الفتاوى: قال بعضهم: ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال : لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، والآية اقتضت أن المتقي يرزق من حيث لا يحتسب، ولم تدل على أن غير المتقي لا يرزق، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة، وقد لا يرزقون إلا بتكلف، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة، والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به .

قال الطحاوي: فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللاً فليستغفر الله، وليتب إليه.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، جعل لنا من أنفسنا أزواجا، وجعل المودة والرحمة منالا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

بعد أن ذكر تعالى أحكام الصلاة، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

ومن وثق بالله، واعتمد عليه، ولجأ إليه فيما نابه من أمر دينه ودنياه، كفاه ما أهمه، وجلب له ما ينفعه، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل؛ لأنه مأمور به، ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب .

قال ابن القيم: فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئًا ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر.

وجعل ـ سبحانه ـ لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزءاً معلومًا، وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته .

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عند الله وأحبها إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾.

أي: لابد من نفوذ قضائه وقدره، وهذا حض على التوكل وتأكيد له.

وقد جعل - سبحانه - للشدّة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه .

وقيل: هو قدر الحيض والعدة .

ولما ذكر - سبحانه - كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله:

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر له.

قال النيسابوري: ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه - سبحانه - حث على التقوى في هذه السورة ثلاث مرات: بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء:

الأول: أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره ويتيح له خيراً ممن طلقها .

والثاني: اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حياً.

الثالث: أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء.

عباد الله:

ثم حث على التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى:

الأولى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ لأن المعبود الحقيقي القادر على كل شيء، الغنى عن كل شيء، الجواد بكل شيء إذا فوضه عبده الضعيف أمره إليه لا يهمله البتة.

الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: يبلغ كل أمر يريده ولا يفوته المطلوب.

الثالثة: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتاً ومقداراً، وهاتان الجملتان كل منهما بيان لوجوب التوكل عليه لأنه إذا علم كونه قادراً على كل شيء، وعلم أنه قد بين وعين لكل شيء حداً ومقداراً لم يبق إلا التسليم والتفويض.

هذا وصلوا...

٢٠ الخطبة الأولى [١]

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله ﷻ وأطيعوه، واحذروا مخالفة أمره ولا تعصوه.

عباد الله:

لا نزال نتفيأ ظلال سورة الطلاق وما فيها من أحكام وفوائد، فقد بين - سبحانه - حكم المطلقة التي لا تحيض لصغرها، أو لكبر سنها وختمها بقوله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

ومن يتق الله فيطلق للسنة، يجعل له من أمره يسرًا في الرجعة، ويسهل عليه كل عسير، ويمح عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والمثوبة.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتمشوا عليه، وتأتموا وتقوموا به، وتعظموه وتعملوا بمقتضاه.

---

(١) سورة (الطلاق) الجزء الثاني.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

أي: ومن يتق ربه يمح عنه ذنوبه. ويعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.

قال ـ تعالى ـ عن الفراق بين الزوجين في سورة النساء: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

قال السعدي: يعني: إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال:﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: من فضله وإحسانه العام الشامل.

فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها، وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاء قلبياً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي: واسع الرحمة، كثير الإحسان ﴿حَكِيمًا﴾ في وضعه الأمور مواضعها .

عباد الله:

لما بين –سبحانه– التقوى في قوله : ومن يتق الله، كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات، فقال :

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.

ذكر الله في الآيات السابقة النهي عن إخراج المطلقات عن البيوت، وأمر هنا بإسكانهن. ومن هنا بدأ بيان ما يجب للمطلقات، أي: أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها. من سعتكم وطاقتكم، فإن كان موسراً وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة وهذا في المطلقة الرجعية، أما التي طُلِّقت الثالثة فإنها لا نفقة لها ولا سكنى.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾.

أي: ولا تضيقوا عليهن في المسكن أو النفقة لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة أو الافتداء.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

أي: وإن كانت المطلقة حاملاً، فعلى الزوج أن ينفق عليها وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كان رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن .

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: هؤلاء المطلقات إذا ولدت، ورضيت أن ترضع لكم ولداً. فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة لولده.

﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾.

هذا خطاب للأزواج والزوجات الذين وقع بينهم الفراق

بالطلاق، أي : تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض المعروف والجميل في شأن الولد، وهذا يناسب المقام، فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم؛ لأنه ولدهما وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه، حيث إن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر من البغض شيء كثير.

عباد الله:

ثم جاء قوله تعالى:

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

أي: بأن لم تتفقوا في أجر الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر الذي تريد، وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر . فليستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، وهو خبر بمعنى الأمر، أي: فسترضع له مرضعة أخرى، وفيه عتاب للأم لطيف على المعاسرة .

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

هذا بيان لقدر الإنفاق، فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم. ومن كان مضيّقًا عليه في

الـرزق فقيرًا، فلينفق مما أعطاه الله من الرزق، على مقدار طاقته، ليس عليه غير ذلك. لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واسـتطاعته، وبقدر ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسـعه كنفقة الغني، وفيه تطييب لقلب المعسـر، وترغيب له في بذل مجهوده.

وقد ذكر ﷻ في سورة البقرة، بالإحسان إلى المطلقة:

قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

أي: فـإذا طلقتموهـن فادفعـوا لهن بشـيء من متعـة ينتفعن به جـبراً لهن، وتطييبـاً لخاطرهن، وجبراً لوحشـة الفـراق والطلاق، وإزالـة للأحقاد، على قدر حال الرجل في الغني والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعاً بالمعروف حقّاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله .

وفي الآيـة ذكـر المحسـنين، وفي الآيـة الأخرى ذكـر المتقين، قـال تعالى :

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

عباد الله:

قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

هـذه بشـارة للمعسـرين والفقـراء، أن الله يزيل عنهـم الشـدة ويرفع عنهم المشقة، وهو وعد لذوي العسر باليسر، وسيجعل ـ سبحانه ـ بعد ضيقٍ وشدّةٍ، سعةً وغنى.

أخي المطلق: أطرح بين يديك علاجـاً شافيـاً بإذن الله ﷻ لما ألم بك، وجلاء لما أصابك، ومن ذلك:

أولاً: عدم العجلة في الأمر: فإن العجلة مذمومة في كل شيء إلا في عمل الخير، وأراك ذلك الرجل الفطن الذي تدقق وتراجع، وتقدم وتؤخر في شراء سيارة مثلاً، وما أنت فيه اليوم أولى وأحق بذلك، ثم إنَّ التأخير لا يضرك شيئـاً، وإن لم ينفعك فلن تندم - بإذن الله -، كم من رجل ندم على العجلة والطيش ولم يندم على التأخير مطلقـاً، والقرار بيدك اليوم أو غداً فلم العجلة؟

ثانيـاً: من عادة عقلاء الناس إرجاع الأمور على أهلها واستشارتهم، فها أنت تستشير في شراء قطعة أرض أصحاب العقار والمعتمين بذلك، فمن باب أولى أن تقصد طلبة العلم والعلماء وتشرح لهم ما أنت فيه، فإنَّ الحق ضالة المؤمن، وأنت بإخوانك عزيز الرأي ثاقب الفكر.

ثالثـاً: ما نزل بك من الهموم والغموم والمشاكل إنما هو من أنواع الابتلاء التي يجب الصبر عليها واحتساب الأجر فيها، قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة، يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**» [متفق عليه] وأكثر من الاسترجاع قال ﷺ: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله: إن لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلق لي خيراً منها، إلا أخلف الله خيراً منها**» [رواه مسلم].

رابعـًا: طهِّر قلبك من الحقد والكراهية: فإن هذه الأمور تجعل على عينيك غشاوةً تجعل فكرك مشلولاً، والشطيان يفرح بذلك النصيب منك، فاحذر أن تبين مصير حياة زوجية على حقد أو كراهية أو انتصار للنفس، والنبي ﷺ يقول: «**اللهم إن أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**» [رواه النسائي].

خامسـًا: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقال في شأن الأعداء والخصماء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. ومن العدل ذكر حسنات الزوجة طوال الشهور والسنوات التي مضت، وعدم تصيد الهفوات والزلات فهذا ليس من ديدن وطريقة كرام القوم، وأراك تصفح عن زميلك وصاحبك في زلات كثيرة، فما بالك اليوم تجانب المسامحة والصفح في أمر من قال الله عنها: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

سادسـًا: لا تنس أن في بقاء الزوجة مع محاولة إصلاحها إعفاف لأذنك وسمعك وفرجك من نزعات الشيطان. والإنسان ضعيف يتصدى للفتن بم أحل الله ﷻ وشرع.

أخي المُطلق:

إن كان لك أبناء فإنهم قد يعانون من سرعة اتخاذك للقرار وقد تحرمهم حنان الأم أو حنان الأب، واعلم أن جزءاً من سعادتك هي رؤية صغارك منْ حولك، وأنت الآن على مفترق طرق فلا تتعجل الأمر؛ وإن

كان عليك مشقة في البقاء مع الزوجة، إلا أن رجاء صلاح صغارك يجعلك تتحمل ذلك، فكم تحملت من العب والحزن لأجلهم.

ولذلك ابتعد عن الكبر والتسلط والانتصار للنفس، فإن ا لنبي ﷺ كان رأس المتواضعين وهو أشرف الخلق. وتجنب إيقاع الطلاق بدون سبب شرعي، ولا يكن فعلك حال الطلاق أو بعده الرغبة في الانتقام بايذاء المسلمة أو أهلها فإن هذا من الظلم.

وأقرأ سيرة رجال كرام كان لهم أدوار عظيمة في قيام الأمة من الصحابة والتابعين، وكيف هو حالهم مع زوجاتهم، بل واقرأ نماذج من حال النبي ﷺ مع زوجاته!.

ولابد أن تعلم أن هناك اختلاف في الطبائع والعادات والرغبات الشخصية والمستويات الفكرية بين الزوجين، فكلٌّ منهما عاش وتربى في منزل وفي بيئة أسرية مختلفة، سنين طويلة تقبلته فيها أسرته بعاداتها وطبائها، وأنت الآن تريد أن تغيِّر ما كان في لحظات، ولهذا لابد من النازل عن بعض الحقوق والتغاضي عن الهفوات، وغالباً تنشأ المودة والمحبة بعد حين من الزمن وتقوى بعد إنجاب الأنباء ومعرفة طباع كل وزج لزوجته، وليس من شروط الزواج الناجح أن تتوافق جميع الرغبات وتتطابق الأفكار.

واذكرك بالتوجه إلى الله ﷻ بالدعاء والاستغفار والصدقة، لعل الله أن يصلح ما فسد ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله المحمود على كل حال، وإليه المرد والمعاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولاند، ولا ظهير، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لهذه الزوجة أعمال كثيرة وخدمات جليلة تقدمها لك، ومنها إعفافك وصيانة حاجاتك النفسية والعاطفية، وتقديم أكلك وشربك ونظافة ملبسك وتربية أبنائك والنبي ﷺ يقول: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقـًا، رضي منها آخر** - أو قال **غيره**» [رواه مسلم].
وقد يجد الرجل زوجة لكنها صعبة المراس فيعجبه دينها وعفافها، وآخر قد يجد بعض الصفات وتنقص أخرى، وهكذا أنت أيضـًا توجد فيك بعض الصفات وتنقضك أخرى، فلا تنشد الكمال في غيرك دون النظر إلى حالك، وتأمّل في حديث النبي ﷺ وحسن التشبيه: «**المرأة كالضلع الأعوج إن أقمتها كسرتها، وإلا استمتعت بها وفيها عوج**» [متفق عليه].

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو خُلق امرأة، فوقف ببابه ينتظر خروجه فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت

يحير جوابـًا، فانصرف الرجل قائلاً: إن كان هذا أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟ فخرج عمر رضي الله عنه فرآه مولّيـًا. فقال: يا هذا ما حاجتك؟ فقص عليه الرجل ما كان، فقال: له عمر نصاحـًا: يا هذا، إنّي أحتملها لحقوق لها عليّ، إنها طباخة لطعامي، خبازة لخبزي، مرضعة لولدي، وسكن بها قلبي عن الحرام، فقال عمر رضي الله عنه إذاً فاحتملها. ولهذا فإن عدم المواجهة أحيانـًا يكون من الفطنة والنباهة وليس في ذلك أدنى نقص.

أخي المسلم:

أول من يفرح ويسر بأمر الخلاف بين الزوجين هم الأعداء والحاقدون والحاسدون وأولهم إبليس قال ﷺ: «**إن إبليس يضع عرضه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئـًا قال: ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال فيدنيه منه ويقول: نعم أنت**».

قال الأعمش أراه قال: «**فيلتزم**» [رواه مسلم] ولهذا لا بد أن يكون هناك مبرر قوي للطلاق، مع استنفاد محاولات العلاج الأخرى من التوجيه والهجر وغيرها.

ولا تظنَّ أن بيوت غيرك خالية من الخلافات الزوجية، ولو سلم أحد من ذلك لسلم بيت النبوة، وكما قيل: البيوت معمورة والأحوال مستورة، ولكنهم صبروا وعفوا وشاوروا، فسارت ركابهم

ونمت دوحتهم، وأنت انتقدت وخاصمت فوقف بلك المسير، ووصلت على هذا القرار فهلا تأملت ووازنت بين الحسنات والسيئات.

هذا وصلوا...

٢١ الخطبة الأولى [١]

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد:

فإن خير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله:

سورة التحريم سورة مدنية، متآخيه السورة مع التي قبلها وهي سورة «الطلاق» وذلك بالافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء وهذه على تحريم الإيلاء، وبينهما من المناسبة ما لا يخفى .

ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردهن

---

(١) سورة (التحريم).

بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران .

ابتـدأت الآية بعتـاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرم على نفسـه سـريته «مارية»، أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته، وجاء العتاب له لطيفـًا رقيقـًا، يشـف عن عناية الله بعبده ورسـوله محمد ﷺ أن يُضيق على نفسـه ما وسعه الله له، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

قـال تعالـى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢].

هـو العليـم؛ يعلـم السـرائر والخفيـات، لايخفى عليـه قـول ولا فعل مما يجترحه العباد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ثم ذكر ـ تعالى ـ في ثنايا السورة :

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

وإعراض الرسول ﷺ عن تعريف زوجـه ببعض الحديث الذي أفشـته من كرم خلقه ﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته.

عباد الله:

والكريم يتغافل عن تقصير أهله وصحبه، ولا يستقصي حقوقه .

قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام.

وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، وما زاد على المقصود، يقلب العتاب من عتاب إلى تقريع.

قال الله ـ تعالى ـ عن نبينا ﷺ ـ لما أخطأت بعض أزواجه ـ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

وجاء في السورة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] جاءت كلمة ﴿نَارًا﴾ منكرة دلالة على عظمها وفظاعتها، كونها ناراً كاف للخوف منها؛ لكنها مع ذلك وصفت بوصفين عظيمين: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، و﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾، ألا ما أشد هذا الوصف وما أفظعه، حتى قيل: إنه أعظم وصف للنار فيما يتعلق بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨].

وإنما أوتر لفظ القرية هذا دون الأمة ونحوها، لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريفاً بالمشركين من أهل مكة ومتابعة لهم بالنذارة ولذلك كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله في نحو: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: ٤].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

قال القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العَوْد بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

قال تعالى: ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]. قال ابن عباس: ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق، فيطفأ نوره، والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق فهو يقول: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

قال ابن تيمية: وهذا في الحقيقة من رحمة الله بعباده، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين، وهو ـ سبحانه ـ أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدة تلحق بعض النفوس.

عباد الله:

ثم ضرب الله ـ تعالى ـ مثلاً آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان مؤمناً، فقال تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾.

أي: مثل ـ تعالى ـ للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط. كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما نوح، ولوط، عليهما السلام وإنما وصفها بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه ـ تعالى ـ.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

أي: فوقعت منهما الخيانة لهما في الدين، لا بخيانة النسب والفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحداً من أنبيائه بغيّا.

قيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

أي: فلم ينفعهما نوح ولوط مع نبوتهما بسبب كونهما زوجتين لهما شيئًا من النفع، ولا دفعًا من عذاب الله، مع كرامة الأنبياء على الله ومنزلتهم. وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين، ادخلا النار مع من فيها، أهل الكفر والمعاصي.

عباد الله:

ثم ضرب - تعالى - مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح، فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: إن صولة الكفر لا تضرّهم كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها في جنات النعيم.

وامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها آمنت بموسى عليه السلام فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجاها الله من شره.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى﴾.

أي: حين دعت ربها وتضرعت إليه قائلة: يا رب اجعل لي قصراً مشيداً قريباً من رحمتك في درجات المقربين منك، وسؤالها لربها أجلُّ المطالب، فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور. فلذا طلبت كون البيوت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

ثم سألت الله أن ينجيها ـ سبحانه ـ من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، من ذاته وممّا يصدر عنه من أعمال الشرّ .

﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هم الكفار من القبط أتباع فرعون الطاغين، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه ومسألته الخلاص عند المحن والنوازل من سير الصالحين.

ثم ذكر ﷻ مريم مثنياً عليها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: ومريم ابنة عمران، مثل آخر في الإيمان، جمع الله لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاها على نساء العالمين، مع كونها بين قوم عصاة، وقد أثنى عليها لأنها حفظت فرجها وصانته عن الفواحش، لكمال دينها، وعفتها، ونزاهتها. فنفخ رسولنا جبريل في جيب درعها؛ فحبلت بعيسى عليه السلام.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

هـذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإنها آمنت بشرائعه التي شرعها لعباده، وما خاطبها به الملَك، وهو قول جبريل لها: إنما أنا رسول ربك، وما أخبرها به من البشارة بعيسى، وكونه رسولاً من المقربين. وصدقت كذلك بالكتب السماوية المنزلة على الأنبياء.

وكانت من القوم المطيعين لربهم، المداومين على طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل .

عباد الله:

الوصية بالنساء خيراً امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقول الرسول ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**» [رواه أحمد].

ومن ذلك إعطاؤها حقوقها وعدم بخسها، فعن معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ فقال – عليه الصلاة والسلام-: «**أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت**» [رواه أحمد]، روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك**» [رواه مسلم]، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

تقول: «ما رأيت رسول الله ضرب امرأة...» [رواه مسلم]، والرسول ﷺ هو القدوة والمثل.

ومن ذلك تعليمها العلم الشرعي، وما تحتاج إليه من أمور العبادات، وحثها وتشجيعها على ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: «**نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعن الحياء أن يتفقهن في الدين**» [رواه البخاري]، وعلى الزوج أن يتابع تعليمها القرآن الكريم والسنة المطهرة ويشجعها ويعينها على الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، قال ﷺ: «**رحم الله قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء**» [رواه أحمد].

ومن أهم الأمور التي انتشرت في أوساط بعض الأسرة المسلمة من المخالفات في تلك المعاملة الحسنة التي أمرنا بها: بذاءة اللسان، تقبيح المرأة خلقةً أو خُلقًا، أو التأفف من أهلها وذكر نقائصهم، وكذلك سب المرأة وشتمها ومناداتها بالأسماء والألقاب القبيحة، ومن ذلك إظهار النفور والاشمئزاز منها.

ومن ذلك أيضًا تجريحها بذكر محاسن نساء أخر، وأنهن أجمل وأفضل، فإن ذلك يكدر خاطرها في أمر ليس لها فيه يد.

ومن المحافظة على شعورها وإكرامها، مناداتها بأحب أسمائها إليها، وإلقاء السلام عليها حين دخول المنزل، والتودد إليها بالهدية والكلمة الطيبة، ومن حسن الخلق وطيب العشرة عدم تصيد أخطائها ومتابعة زلاتها، بل العفو والصفح والتغاضي خاصة في أمور تجتهد فيها وقد لا توفق، وتأمل في حديث الرسول ﷺ: «**إن أكمل المؤمنين إيمانـًا أحسنهم خُلقـًا، وخياركم خياركم لنسائكم**» [رواه أحمد].

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق الذكر والأنثى، من نطفة إذا تُمنى، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله ﷻ خلق لنا في هذه الدين أزواجًا نسكن إليها، وجعل المودة والرحمة دوحة نستظل بها، ورغبة في تجديد ما تقادم من المعلومات، وتذكير من غفل من الأخوان والأخوات، فإن الحقوق الزوجية عظيمة ويترتب عليها أمور مهمة فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وهذه المرأة -أخي المسلم- التي تحت يدك أمانة عندك، ومسؤول عنها يوم القيامة، هل أديت حقوقها أم فرطت وضيَّعت؟!

والواجب على الزوج تحمل أذاها والصبر عليها، فإن طول الحياة وكثرة أمور الدنيا لابد أن توجد على الشخص ما ينغص عليه من زوجه، كأي إنسان خلق الله فيه الضعف والقصور، فيجب تحمل الأذى إلا أن يكون في أمر الآخرة: من تأخر الصلاة، أو ترك الصيام، فهذا أمر لا يُحتمل، ولكن المراد ما يعترض طريق، الزوج خاصة الأيام التي تكون فيها الزوجة مضطربة، وتمر بظرف شهري

معروف، وقد كان نساء النبي ﷺ يراجعنه، ويقع منهن تصرفات تستوجب الحلم والعفو.

عباد الله:

من حقوق الزوجة المحافظة على مالها وعدم التعرض له إلا بإذنها، فقد يكون لها مال من إرث أو عطية أو راتب شهري تأخذه من عملها، فاحذر التعرض له لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا وعداً ولا وعيداً إلا برضاها، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، وقد كان رسول الله ﷺ أميناً على مال زوجته خديجة فلم يأخذ إلا حقه ولم يساومها ولم يظهر الغضب والحنق حتى ترضيه بمالها! قال - تعالى- مُحذراً عن أخذ المهر الذي هو مظنة الطمع وهو من مال الزواج أصلاً: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠- ٢١]. فما بالك بأموال زوجتك التي تكدُّ وتتعب لجمعها. وأخذ المال منها ينافي قيامك بأمر القوامة، ووجوب النفقة عليها حتى وإن كانت أغنى منك، وليحذر الذين يتعدون على أموال زوجاتهم ببناء مسكن أو استثمار ثم يضع مالها باسمه ويبدأ يستقطعه، فإنه مال حرام وأخذ مال بدون وجه حق، إلا بإذن صاحبه.

ومن حقوق الزوجة التي عدَّد زوجها، العدل بين الزوجات في البقاء والمكث مع كل زوجة والتسوية في المبيت والنفقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وقد مال كثير من المعددين، والرسول ﷺ يقول: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل**» [رواه أحمد].

كان الرسول الله ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين زوجاته فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان - عليه الصلاة والسلام- يراعي العدل وهو في مرض موته حتى أذن له زوجاته فكان في بيت عائشة، وكان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه امرأتان فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء.

هذا وصلوا....

٢٢ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد:

فالوصية المبذولة التقوى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

عباد الله:

سورة القلم ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ سورة مكية، ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه، وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه - وحاشاه - بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، قال بعض العلماء: سورة «ن» هي سورة «الخُلُق» الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ قال الله - تعالى - فيها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد أقسم الله - تعالى - بالقلم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون.

---

(١) سورة (القلم).

قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم ما قام دين ولم يصلح عيش، والله أعلم بما يصلح خلقه.

ويؤخذ من الإقسام بالقلم وبالمكتوب فضل العلم وأهله. وقد قال بعض السلف: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم.

ثم ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ ما أجراه على نبيه من نعمة النبوة والرسالة، وما وهبه له من الأخلاق الكاملة العالية الرفيعة والأدب الجم، التي تنافي الجنون والسفه، فقال سبحانه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عاليًا به، جمع لك به محاسن الأخلاق ومحاسن الصفات.

والمعنى: إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سُئلت عن خلق النبيّ ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن».

قال الغزالي: فسبحان الله ما أعظم شأنه، وأتم امتنانه، انظر إلى عميم لطفه، وعظيم فضله، كيف أعطى ثم أثنى، فهو الذي زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

عباد الله:

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ الآيات السابقة تسلية لنبيه ﷺ وإعانة له على تحمل أعباء الرسالة، شد من أزره ورفع قدره، فقال تعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى: فيه فوائد، منها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة؛ ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم؛ فليأخذ حذره فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله ـ تعالى ـ.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾.

ولا تطع ـ يا محمد ـ كثير الحلف بالباطل، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو:

﴿مَّهِينٍ﴾.

أي: فاجر حقير، خسيس النفس، ناقص الهمة، دنيء الأخلاق. ومهين: من المهانة، وهي القلة في الرأي والتمييز.

وفيه دليل على أن من أكثر الأيمان هان على الرحمن، واتضعت مرتبته عند الناس.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾.

أي: مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب. يمشي بين الناس بالنميمة. والنميمة هي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: بخيل ممسك، يمنع النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك. وجاءت الأوصاف: حلاف، هماز، مشاء، مناع، بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

ظالم للخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله ـ تعالى ـ.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

أي: جاف، غليظ، شرس الخَلْق، غير منقاد للحق. وهو بعد ما عُدَّ من معايبه زنيم. والزنيم: الدعيّ الملصق بالقوم وليس هو منهم، وهذه أشد معايبه وأقبحها.

قيل نزلت في الوليد بن المغيرة فقد كان دعيًّا في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة. قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه، فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ أعرفها غير التاسع منها، يريد أنه «زنيم»، فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنينًا ـ أي لا يستطيع معاشرة النساء ـ فخفت على المال فمكنت راعيًا من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يُعرف أنه ابن زنى حتى نزلت الآية.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى، واستكبر عن الحق، وهذا تقريع وتوبيخ له كيف جازى نعم الله بالكفر والاستكبار عن الحق.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

من صفاته وحاله الشنيع، أنه إذا قرأت عليه الآيات جعلها من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. وقد توعد الله من كذب بآياته ورسله بالعذاب الشديد جزاء فعله، فقال تعالى:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

أي: سوف نجعل له الوسم بالسواد على أنفه، وذلك أنه يسود وجهه بالنار قبل دخول النار، فيكون له على أنفه علامة، ونُلْحِق به شينًا لا يفارقه يعرف به، وخص الأنف بالذكر لأن الوسم فيه أبشع. ولأن السمة على الوجه شين وإذاله، وقد خُطم أنفه بالسيف يوم بدر .

قال ابن تيمية: وفيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضًا. فإن الله جعل للصالحين سيمًا، وجعل للفاجرين سيمًا. قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

فأخبر - سبحانه - أنه لا بد أن يسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومه، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز الذي يسبق البصر - إليه عند مشاهدته؛ لتكون السيما ظاهرة من أول ما يرى، وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم، فإن لهم سيمًا من شر يعرفون بها، وكذلك الفسقة وأهل الريب .

عباد الله:

ثم ساق - سبحانه - مثلاً ضربه - تعالى - لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعث محمد ﷺ فقابلوه بالتكفير، والرد والمحاربة، والسخرية والاستهزاء.

قال تعالى:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٨ – ٢٩].

دليل على أن المذنب الظالم لنفسه محتاج - مع ربه - إلى الاعتراف بذنبه، وسوء صنيعه بلسانه، وإن كان نادماً عليه بقلبه، وكذا كان نبينا ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي**».

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: ٣١].

قال ابن تيمية: فإنه - سبحانه - إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل، عاقبه بباب من الشر - يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة.

قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم وننسيهم الشكر.

وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية. والصبر على الأول أشد.

بارك الله لي ولكم....

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً مباركـاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

عباد الله:

لقد أثنى الله ﷻ على العلم وأهله، ورتَّب لمن سار في طريقه الأجر والمثوبة ورفع الدرجات في الدنيا والآخرة. ومن إكرام الله ﷻ للعلماء استشهاده بهم على أعظم مشهودٍ به وأجلِّه وهو توحيده، وقَرَنَ شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة.

قال الله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء.

ورفع الله جل وعلا درجة المؤمنين العالمين فوق درجة جهلة المؤمنين (وفي كل خير) فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال الشوكاني: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ أي: ويرفع الذين أوتوا اعلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية: أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات.

ولا شك أن ذلك من فضل الله وإحسانه ومنِّه وعطائه ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولاختلاف تلك المنازل والدرجات فإن الله ﷻ نفى التسوية بين أهل العلم والعوام، فقال عز من قائل عليماً: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وعن المنزلة الرفيعة والمكانة العلية لأئمة الهدى ومصابيح الدجى قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقَدَّم جل وعلا العلم قبل العمل؛ لأن العلم هو الدليل الذي يهدي إلى المراد، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩].

ورُوي عن زيد بن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال: بالعلْم؛ لأن الله لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

وفي ذلك قال الله ﷻ مخاطباً نبينا محمداً عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال ﷺ مبيناً مكانة العلماء: «**العلماء ورثة الأنبياء**» [رواه أحمد والترمذي] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة.

وبيَّن ﷺ حالة طالب العلم وفضل طلب العلم على غيره من نوافل العبادات، فقال ﷺ مخاطباً أباذر: «**يا أباذر! لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عُمل أولم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة**» [رواه ابن ماجه].

وقال ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهَّل الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب، وإن العالم لستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» [رواه أحمد وابن حبان].

قال ابن رجب: يعنى أنهم وَرِثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خَلَفُوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله.

هذا وصلوا وسلموا...

٢٣ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله أرسل رسله مبشرين ومنذرين، وأشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله -عباد الله- حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، وأعلموا أن أجسامكم وأقدامكم على النار لا تقوى.

عباد الله:

سورة نوح سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها كاملة، قصة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام مع قومه لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوة التوحيد ونهيه عن الشرك، وما قام به من الدعوة إلى الله بوسائل وأساليب شتى، ومن ذلك أن ذكرهم بنعمة الله وما أفاض عليهم من الخيرات، ولما عصوا وطغوا أصابهم العذاب، وأغرقهم الله ﷻ عبرة للمعتبرين. وهذه القصص وأمثالها من قصص الأنبياء فيها تذكير بالأمم السابقة، وتسلية للنبي ﷺ على ما يلاقي من قومه في سبيل دعوتهم، وهذه السورة تمثل منهج الدعوة إلى الله ﷻ من حيث

---

(١) سورة (نوح).

تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله ﷻ وشكوى الحال إليه ـ سبحانه ـ.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ١ – ٣].

قال ابن عباس: كل موضع في القرآن: اعبدو الله؛ فمعناه وحدوا الله .

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠ – ١١].

قال ابن كثير: ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أنه صعد ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يتنزل بها المطر .

قال إبراهيم بن أدهم: ما ألهم الله ﷻ عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

وفي الآية أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ إذ النفس متشوقة للحصول على العاجل.

قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قال ابن القيم في الفوائد: من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير مـن الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تعاملونه معامله من توقرونه .

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

قـال ابـن جزي: وجعل القمر نوراً والشـمس سـراجًا، لأن ضوء السـراج أقوى من النور، فإن السـراج وهو الذي يضيء فيبصر به، والنور قد يكون أقل من ذلك .

قـال تعالـى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

وهذه بشـارة لـكل مؤمن ومؤمنة يكون إلـى يوم القيامـة، لأن نوحـًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي، ودعاؤه مستقيم .

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ خـص المذكورين لتأكد حقهم، وتقديم برهم ثم عمم الدعاء.

فإن الدعوة إلى الله من أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وأعظم القربات، بها يستقيم أمر الفرد، ويصلح حال المجتمع.

قال الله ﷻ مثنيًا على من قام بهذا العمل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا نقُص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**» [رواه مسلم].

وقال رسول الله ﷺ حاثًا على أمر الدعوة ومبينًا فضلها: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النَّعَم**» [رواه البخاري ومسلم].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**» [رواه مسلم].

والآيات القرآنية الدالة على الدعوة أكثر من آيات الصوم والحج اللذين هما ركنان من أركان الإسلام الخمسة، فالدعوة إلى الله من أعظم واجبات الشريعة المطهرة وأصل عظيم من أصولها، بها يكمل نظام الشريعة، ويرتفع شأنها.

عباد الله:

فإن مهمة الدعوة إلى الله مهمة كبرى ومسئولية عظيمة، رتَّب الله عليها من الأجر العظيم ما الله به عليم، ولذا اختار الله سبحانه

وتعالى لها أفضل الخلق وأكرم البشر، اختار لها سادات القوم وصفوة الأمة وفضلاءها. فالدعوة عمل الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم.

ومن صور المناذج الدعوية ما قام به نبي الله نوح عليه السلام حيث دعا قومه سنوات طويلة دون كلل أو ملل، ودون أن يتسرب اليأس إليه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

وهذا يوسف عليه السلام لم يمنعه ضيق المكان، وقلة الحركة، وكثرة الحراس، من دعوة من كان معه في السجن فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ونبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، استمر في الدعوة طوال حياته ولاقي من الجَهْد والعنت والإعراض والصدود والاستهزاء والنفور الشيء الكثير، حتى وصل الحال إلى محاولة قلته مرات عديدة، واتهامه بتهم باطلة كاذبة من أنه ساحر ومجنون، وحتى أُدمي عقبه الشريف، وشُج رأسه، وكُسرت رباعيته!

وهذا الخليفة الأول رضي الله عنه وأرضاه، لم يشغله الحزن على وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر الدعوة، بل سارع في وسط ذلك الحزن وتلك الفاجعة إلى تأكيد أمر الدعوة إلى الله وأهميتها، فعقد الألوية، وسيرَّ الجيوش، وأرسل الوفود والدعاة.

وفاروق الأمة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجرحه يثعب دماً على فراش الموت، لم يترك أمر الدعوة، فعلى ضعفه وانحطاط قوى جسمه، ينادي شاباً أدبر وإزاره يمس الأرض فيقول: «ردوا عليّ الغـلام» ثم قال له: «يا ابن أخي، ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك».

ومن تتبع سير السلف الصالح وعلماء هذه الأمة، يجد منهم الحرص والجد والمثابرة، حتى أصبحت الدعوة إلى الله هي شغلهم الشاغل، وهمهم المتصل.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى-: في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال: ذكر الله سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإما أن يكون طالباً للحق مُحباً له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة وجدال، وإما أن يكون مشتغلاً بغير الحق لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى المواعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن.

أخي المسلم:

إن تنوع الأساليب وتعدد أوجه الدعوة من ضرورياتها ومتطلباتها، هذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما ترك سبيلاً لدعوة قومه إلا سلكه، ولا باباً إلا

طرقه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩].

والرسول ﷺ كان يأتي إلى مجامع قريش وأسواقها ويدعوهم إلى توحيد الله ﷻ، ووقف منادياً على الصفا، واتخذ من موسم الحج منبراً للدعوة، وسارع إلى الطائف، ثم هاجر إلى المدينة النبوية. إنها أسلوب اتبعه الرسول ﷺ أو له ضابط شرعي، فنحن نتبعه ونسير عليه. ثم مع هذا السير لا بد أن يوطن الداعي نفسه على تحمل المشقة والأذى، فالدعوة تحتاج إلى جهاد وصبر وإذلال النفس فيها لله ﷻ.

ولأهمية الدعوة فإن ترتيب الأولويات ضروري، فالتوحيد وإفراد الله ﷻ بالعبادة قبل الصلاة قبل الصوم. نبدأ بالأهم فالمهم.

لما بعث الرسول ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم..**» [رواه البخاري ومسلم].

أخي المسلم:

إن أعظم دعوة يقوم بها المسلم هي دعوة نفسه فيبدأ بها يُلزمها الطاعة ويجنبها المعصية، ويجاهد نفسه في ذلك حتى تستقيم له. ثم

يبدأ بمن هم تحت يده والأقرب له لمن دعوتهم فرض عين من زوجة وابن خادم وغيرهم.

لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم**» [رواه مسلم].

وينبغي لك أيها المبارك أن يكون كلامك هينًا لينًا، ووجهك منبسطًا طلقًا، فإن تليين القول مما يكسر سَوْرة عندا العتاة، ويلين عريكة الطغاة. فالداعي أيًا كانت منزلته وأيًا كان عقله وعلمه ليس بأفضل من موسى وهارون، ومن وجهت إليه الدعوة ليس بأخبث من فرعون! وقد أمرهما الله جل وعلا باللين معه في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وعليك أخي المسلم بتوجيه الرسول ﷺ: «**وتبسمك في وجه أخيك صدقة**» [رواه الترمذي]. فإن هذه الابتسامة مفتاحٌ للقلوب، وإظهار للمحبة، فهي تزيل الوحشة، وتبعد الفرقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وينبغي أن يكون الداعي حليمًا صبوراً على الأذى، فإن لم يحصل ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

وعلى الداعية أن يستحضر الإخلاص في عمله والصدق مع الله ﷻ في دعوته، حتى تُثمر، ويكتب لها القبول، ويثبت بها الأجر ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] وقد جمعت هذه الآية العظيمة الإخلاص وشرط البصيرة والعلم.

أخي المسلم:

إن تيسر أسباب الدعوة وسهولة طرقها وتعددها وتنوعها مدعاة إلى المسارعة والمسابقة في الخيرات، فلقد تيسر لنا في هذا الزمن ما لم يتيسر لغيرنا من وسائل الدعوة ورخص ثمنها وتنوعها وسهولتها.

ومن وسائل الدعوة: النصيحة الشخصية مهاتفة أو مشافهة أو مراسلة، ويلتزم فيها الداعي إظهار المحبة والحرص على الدعوة، ويذكر ما في المدعو من الخير وينبهه إلى المخالفات التي يقع فيها. والرسائل الشخصية عموماً من أجدى الوسائل وأكثرها تأثيراً، ولا عذر لأحد فالأمة كلها تكتب وكلها تقرأ، فأين أصحاب الهمم؟!

ومن وسائل الدعوة المتيسرة - ولله الحمد - الإحسان إلى الناس بالهدية، أو تفريج الكربة، وقضاء الحوائج، قال ﷺ: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**» [رواه مسلم].

وهذه الخدمة الخالصة التي تقدمها لوجه الله ﷻ تفتح لك قلب المدعو، وتجعله يستمع إليك ويرضى بتوجيهك وقبل نصحك.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وقدم - أخي الكريم - العفو والصفح فأنت مُحب مُشفق تبحث عن أجر من الله ﷻ، وليس لك هدف دنيوي ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وعليك بقول الله تعالى واجعله نبراساً لحياتك ونوراً يضيء طريق دعوتك ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

واحذر من اليأس والقنوط في أمر الدعوة، فإن هذه أمراض مهلكة لدعوتك، ولا تقل دَعَوْتُه مرة وثانية فلم يستجيب لي! تأمل في دعوة الرسول وهو يمضي في طريق دعوته سنوات طويلة، ولم ييأس ولم يتخاذل ويتكاسل حتى أشرقت الأرض بنور بها.. وفي كل مرة تحاول وتعاود الدعوة أنت مأجور مُثاب ولا يهمك القبول أو الإعراض، فإن الهداية من الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فعليك -أخي المسلم - القيام بالدعوة وليس لك تتبع النتائج وحصد الثمرة، فالدعوة جهاد وصبر واحتساب، ومعاودة وتكرار، واستغلال للفرص والأحداث، فاستصحب الصبر على الدعوة وعلى المدعوين، وعلى التضحية بوقتك ومالك وجهدك، وليس عليك وحشة، فأنت تسير على الخُطى وتقتفي الأثر، في طريق غير موحشة، لأن أقدام الأنبياء والصالحين وطأته وتغبرت في طرقه. وكلما أظلت

سحابة الفتور في سمائك استشعر عظم الأجر وجزيل المثوبة.. وتأمل في مَنْ دعوتهم.. إن صلوا فلك مثل أجر صلاتهم، وإن صاموا فلك مثل أجر صيامهم، وإن قاموا الليل فكل مثل أجر قيامهم!

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية[١]

الحمد لله القائل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده الحق المبين، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، الصادق الأمين، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات ربي ولسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله:

حديثنا في الخطبة الثانية عن سورة الجن.

وسورة الجن سورة مكيّة نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً. وقد ذكر الله ﷻ فيها أن الجن مكلفون مجازون بأعمالهم، وأنه - سبحانه - بعث محمداً ﷺ للإنس والجن كافة بشيراً ونذير، وذكر - تعالى - في الآيات اعتناؤه برسوله وحفظه لما جاء به، ومنع الجن من استراق السمع بشهب تطال من يسترق، وبين - تعالى - شدة حرص الجن لاستماع الرسول وقيامهم بتبليغ الدعوة، وختمت السورة بأن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق إلا من ارتضاه الله وخصه بعلم شيء منها، فإن الله

(١) سورة (الجن).

ﷻ أيد الأنبياء بالآيات الباهرات والمعجزات العظيمات، تأييداً لهم وتبياناً للناس، وقد ذكر ـ تعالى ـ حكاية عن الجن لما علموا وسمعوا بما جرى من بعثة الرسول ﷺ.

ثم بينوا علمهم بقدرة الله ـ تعالى ـ عليهم أينما كانوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

فلاهم يعجزون الله وهم في الأرض، ولاهم يعجزونه بالهرب منها.

ثم قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله ـ تعالى ـ، حذفوا فاعله تأدباً مع الله.

وهذا الأدب كثير في القرآن الكريم، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال ـ تعالى ـ آمراً للمصلي أن يقول: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

إلى آخر السورة فأسند الإنعام والهداية إلى الله ـ تعالى ـ، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الظلال إلى العبيد.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

قال ابن عاشور:

«لما آمن نفر من الجن لم يصفوا قومهم بالضلال، بل قالوا: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فتلطفوا حتى يستجيب قومهم لدعوتهم».

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦ - ١٧].

قال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ لو سعنا عليهم في الدنيا؛ وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه.

قدم الإنس في الآية الأولى، والجن في الآية الثانية.

وفي الآيتين تحدٍّ، ولكن لما كان مداره في الآية الأولى البلاغة قدم الإنس، ولما كان مدار التحدي بالثانية سرعة النفاذ والانتقال قدم الجن.

هذا وصلوا...

٢٤ الخطبة الأولى[١]

الحمد لله خلقنا لعبادته، وجعل الجنة دار من أطاعه، والنار لمن خالف أمره وعصاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصبحه وأتباعه.

أما بعد:

فاتقوا الله واستعدوا ليوم عظيم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

عباد الله:

سورة القيامة سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها البعث والجزاء، والقيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وحالة الإنسان عند الاحتضار وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ولذلك سميت سورة القيامة، وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها ليقرأ هذه السورة .

قال تعالى:

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

(١) سورة (القيامة).

لا: أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، والتقدير أقسم بيوم القيامة.

وإقسامه - سبحانه - بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

أي: ولا أقسم بالنفس المؤمنة التقية وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِمَ عملتْهُ، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه.

أو هي نفس الكافر، يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فـرّط منها في جنب الله.

قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديثي نفسي؟ ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه .

ثم أخبر - تعالى - مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال سبحانه :

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

هذا جواب القسم، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أيظن هذا الإنسان الكافر أن لن نقدر على جمع عظامه بعد الموت وبعد أن صارت رفاتًا، فنعيدها يوم القيامة خلقًا جديدًا، وذلك حسبان باطل .

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

أي: بلى سنجمعها ا ونحن قادرون على أن نجمع أصابعه

بعضها إلى بعض، فنجعلها قطعة واحدة كخفّ البعير، لكننا أنعمنا عليه بهذه الأصابع، وهي الصغيرة اللطيفة . المشتملة على المفاصل والأظافر، والعروق اللطاف والعظام الدقاق .

وقيل: هذا تنبيه من الله ـ تعالى ـ على أن بنان كل إنسان تختلف عن بنان غيره من الناس في تخطيط بصمتها، ولو شاء ـ تعالى ـ لجعلها متوافقة .

قال الحسن: إن الله أعفَّ مطعم ابن آدم ولم يجعله خفاً ولا حافراً، فهو يأكل بيديه ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه.

عباد الله:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾.

بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، وأن يقدم فُجُورَهُ فيما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة، يريد أن يَفْجُرَ ما امتدّ عمره ويمضي أمامه راكباً رأسه ولا يذكر الموت .

وقيل الفجور: الكذب مع التعمد .

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: يسأل هذا الكافر المعاند: متى يوم القيامة؟ سؤال استبعاد لوقوعه واستهزاء وتعنت .

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾.

أي: إذا كانت القيامة؛ تحيرت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف، وذهب ضوء القمر ونوره كله ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾.

أي: ذهب ضوؤهما جميعًا، فتجمع الشمس والقمر؛ فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾.

يتساءل الكافر في تلك الأحوال العصيبة، وحين يرى تلك الأهول العظيمة، يريد مسلكًا وطريقًا ينجو به. أين المفرّ؟ وأين المهرب من الله ـ سبحانه ـ، ومن حسابه وعذابه؟ وأين الخلاص والفرار مما نرى؟

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾.

ردع له عن طلب الفرار. أي: لا ملجأ له ولا مغيث من عذاب الله يعصمه يؤمئذ. إلى الله وحده المرجع والمنتهى، والمصير لسائر العباد.

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

أي: يخبر الإنسان يوم القيامة بجميع عمله الحسن والسيء، في أول وقته وآخره، ويُنَبأ بخبر لا ينكره. بل الإنسان شاهد على نفسه، يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج.

وقيل المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة ولو اعتذر وجادل عن نفسه، لم ينفعه ذلك، فعليه من يُكذّب عذره.

عباد الله:

بعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل، حيث كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقاً، وإشارة إلى أن جمعة على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من الله ـ تعالى ـ وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾، ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه، كما تعهد ـ تعالى ـ بذلك والله ـ تعالى ـ أعلم.

ثم ذكر الله ﷻ أن الذي أوجب الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره محبتهم للدنيا وانكبابهم عليها، قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

أي: ارتدعوا يا معشر المشركين فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم تحبون الدنيا الفانية وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتدعون الآخرة والسعي إليها والقيام بأوامر الله ـ تعالى ـ واجتناب نواهيه .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

أي: وجوه أهل السعادة في يوم القيامة، وجوه مشرقة ناعمة غضة حسنة، تنظر إلى خالقها ومالك أمرها، فتتمتع بذلك.

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة من أن الصالحين ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون القمر ليلة البدر، وذلك على حسب مراتبهم: منهم من ينظر كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة.

ثم قال - سبحانه - في المؤثرين العاجلة على الآجلة:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

حال وجوه الأشقياء يوم القيامة كالحة عابسة، كئيبة ذليلة، تتوقع أن تنزل بها داهية عظمى.

والفاقرة: الداهية العظيمة، كأنها كسرت فقار الظهر فهي تنتظر عقوبة شديدة وعذابًا أليمًا؛ فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

عباد الله:

وفي الآيات اللاحقة يعظ - سبحانه - عباده، وقد دنت ساعة الموت فيذكر حال المحتضر عند السياق، واشتداد الكرب عليه، ويطلب عندها كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولكن الأجل قد نزل، والموت قد حضر، وهذا المشاهد واقع يراه الناس كل يوم، وفيه العظة والعبرة، قال تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾

كلا :ردع وزجر عن إيثار العاجلة، وتذكير بالموت إذا بلغت النفس أو الروح التراقي، والترقوة عظم بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عند الإشفاء على الموت .

وقال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشفي برقيته؟ التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئًا، وأيقن المحتضر أنها ساعة الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد لمعاينته ملائكة الموت، واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة .

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾.

أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، فماتت رجلاه، ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جوّالاً عليهما في الدنيا، وكأنه طوى تلك الأقدام مغادراً دار الدنيا، فالناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. إلى خالقك معاد العباد ومرجعهم، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾.

قال ابن عباس: «آخر يوم في الدنيا، وأول يوم في الآخرة، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله».

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله، الواحد الملك الديان، واشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين.

عباد الله:

أخبر ـ تعالى ـ عن حال الجاحد المكذب الذي لا تنفع فيه الآيات، فلا يزال مستمرّاً على بغيه وكفره وعناده ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

فلا آمن الكافر بالرسول، ولم يصدّق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. وإنما كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى وأعرض عن الطاعة والإيمان.

ثم ذهب يتبختر ويختال في مشيته، افتخاراً بذلك وتكبراً، أو يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق غير خائف من ربه.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

أي: ويلٌ لك يا أيها المكذب. وكرر للتأكيد مبالغة في التهديد والوعيد، أي: هلاك لك فهلاك، ثم هلاك لك فهلاك. أفيظن الكافر المنكر للبعث أن يترك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وهذا حسبان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

ثم ذَّكر ـ سبحانه ـ الإنسان بخلقه الأول :

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

الاستفهام للتقرير، أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منيّ يراق في الرحم، والغرض: بيان حقارة حاله وبداية منشأه، ثم كان بعد المني علقة، أي : دماً، فخلق الله منها الحيوان وسواه، أي: أتقنه وأحكمه بشراً سوياً .

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

فجعل من هذا وهذا، هو أصل الإنسان وتركيبه فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه، بقادر على أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا؟ فإن الإعادة أهون من الابتداء، بلى ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على ذلك .

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك ربي ! فسألوه عن ذلك؟ قال: سمعته من رسول الله ﷺ.

[رواه ابو داود].

هذا وصلوا...

٢٥ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجًا، وجعل فيها سراجًا وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكر أو أرد شكوراً، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله -، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

سورة عبس، سورة مكية نزلت بمكة؛ فإن الله ﷻ لما بعث نبينا محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأمره بتبليغه ودعوة الناس إليه والقيام بأمره، صدع - صلوات ربي وسلامه عليه - بالدعوة ودعا الناس إلى الإسلام، وتحمل في سبيل ذلك الأذى والمشقة فصبر عليها.

وفي بداية دعوته، ورغبة في تبليغ هذا الدين، حرص على دعوة كبراء القوم ورؤسائهم ومن له كلمة عندهم، طمعًا في إسلامهم وتأثر الناس بهم، فأعرض ﷺ عن رجل أعمى فقير جاء إليه ليعلمه

---

(١) سورة (عبس).

الدين، وظهرت الكراهة في وجه النبي ﷺ حين سأله، ومع أن الأعمى لم يكن يرى عبوس النبي ﷺ وإعراضه، إلا أن الله ﷻ أنزل في ذلك آيات تتلى، حيث ذكر الموقف وسطره في كتابه العظيم، قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾

الضمير يعود إلى رسول الله ﷺ، أي: كلح في وجهه وقطب؛ يعني استنكر الشيء بوجهه، وأعرض في بدنه.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾

أي: لأجل مجيء الأعمى له، والأعمى هو عبد الله بن عمرو ابن أم مكتوم رضي الله عنه وسبب نزولها: أنه جاء إلى النبي ﷺ قبل الهجرة وهو في مكة يسأل ويتعلم منه، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ﷺ في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سبباً لإسلام من تحتهم، وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديداً ـ، فجاء هذا الأعمى يسأل النبي ﷺ، وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله، ويستقرئ النبي ﷺ ويلح عليه، فكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرض عنه، وعبس في وجهه، وأصغى إلى عظماء قريش رجاءً وطمعاً في إسلامهم، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة كبراء القوم.

وقد جاءت الآية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب، وفي هذه أسلوب

رفيـع في تعلم الأدب وحسن المعاتبة، وهو تلطف في حق النبي ﷺ وإجلالاً له.

وفي الآيات بيان حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها واستغنائها عن كل أحد وعن كل سند! والعجب أن هذا في مكة، والدعوة مطاردة، والمسلمون قلة، ومع ذلك كانت المعاتبة للنبي ﷺ.

عباد الله:

وجاء ذكر عبد الله بن أم مكتوم بوصفه إشعاراً بعذره في عدم معرفته بانشغال الرسول صلﷺ، وترقيقًا لقلب النبي ﷺ لأجل علته، وهي العمى، حيث يحتاج من الرعاية ما لا يحتاجها غيره.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

أي: ـ يا محمد ـ، أي شيء يريبك أن يتزكى هذا الرجل الأعمى، ويقوى إيمانه، ويتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان هذا هو المرجو منه فإنه أحق أن يلتفت إليه.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.

يعني: وما يدريك لعله يذكر، أي: يتعظ، فتنفعه الموعظة، فإنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾.

أما من استغنى عن الله، وعن الإيمان بماله لكثرته، واستغنى بجاهه لقوته، وهم العظماء الذين عند النبي ﷺ. فأنت تتعرض وتطلب إقباله عليك وتُقبل عليه، وتهتم بتبليغه دعوتك.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.

يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكى هذا المستغني؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ، وفيه مزيد تنفير له ﷺ من مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر مخلٌّ بالمروءة.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾.

أي: وصل إليك مسرعًا في المجيء، طالبًا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله، وهو يخاف الله ﷻ بقلبه لعلمه بعظمته ـ تعالى ـ. فأنت ـ يا محمد ـ تتلهى وتنشغل عنه برؤساء القوم لعلهم يهتدون. وفي الآية لفته للدعاه والمربون ليهتموا بالضعفاء والبسطاء فلهم حق التعلم والتفقه والسؤال.

﴿كَلَّا﴾ يعني: لا تفعل مثل هذا، وهذه هي أول مرة يقال في القرآن للنبي ﷺ كلا.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

أي: الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه. فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ وعمل به، ومن شاء لم يتعظ ولم يعمل، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه، ويقول: «**مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي**».

ثــم أخبر ـ تعالــى ـ عن جلالة قدر القــرآن ورفعة منزلتــه، وأن هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾.

معظمــة مكرمة عند الله، رفيعة القــدر والرتبة عند الله، منزهة لا يمســها إلا المطهرون، مصونة عن الشياطين والكفار.

والصحف جمع صحائف، والصحائـف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيه القول.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

السفرة الكتبة، وهم الملائكة السفراء بين الله وبين عباده، كرام على ربهم، كرام في أخلاقهم، كرام في خلقتهم لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسـن خُلق، كثيري الخير والبركة.

والـبررة: جمع بـر، وهو كثير الفضل والإحسـان وذلك كلـه حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأنقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول .

أيها المسلمون:

ولمــا ذكر الله ﷻ في الآيات الســابقة أنه جعل هذا القرآن العظيم محفوظًا ومنزهـًا عن التحريف والتبديل، ذكر ـ سبحانه ـ بعــد هـذا البيان قبح جريمة الكافر وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحســان الله إليه، وبدأ بذكر ضعف الإنســان ومبدئـه ومهانتــه،

ليعرف قـدره ويطيع ربه ويصـرف العبادة لمستحقها، وأن لا يتكبر ويتجبر، قال تعالى:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾.

أي: لعن، وأُهلك، والمراد بالإنسان هنا الكافر خاصة.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

﴿مَآ﴾ استفهامية.

أي: ما الذي أكفره وأهلكه، أو ما أشد كفره ومعاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ من أضعف الأشياء .

ومـا ذكر الله الإنسـان في القرآن إلا في مقـام الذم، مثل قولـه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦] ونحوها.

ثم قال تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

اسـتفهام تقريـر لما يأتي بعده، أي: من أيِّ شـيء خلق الله هـذا الكافر حتى يتكبر على ربه، ثم وضح ذلك، فقال:

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾.

والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخـرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل، وهو ماء مهين، فكيف يتكبر؟

ثم أرشد - سبحانه - الإنسان إلى النظـر والتفكر في طعامه وكيف وصل إليه، وفي هذا استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام، بعدما كانت عظامـاً بالية وترابـاً متمزقـاً، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

يعنـي: صيحة يوم القيامة التي تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسـمع، وهذا هو النفخ في الصور.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله خلق الخلق لعبادته، وأرسل لهم رسله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾.

في ذلك اليوم الرهيب يفر الإنسان من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، وأحبهم إليه، لهول ذلك اليوم، يفر من أخيه شقيقه، أو لأبيه أو لأمه. ويفر من الأم والأب المباشر، والأجداد أيضاً والجدات، يفر من هؤلاء كلهم.

قال أهل العلم: يفر منهم لئلاَّ يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره.

﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾.

أي: زوجته.

﴿وَبَنِيهِ﴾.

وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه، والفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع.

وقد بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أحب .

قال ابن تيمية: ابتدأ بالأخ، ومن عادة العرب أن يبدأوا بالأهم، ولحكمة في ذلك أن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى، وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى؛ لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئًا بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد .

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ .

كل إنسان في ذلك اليوم مشتغل بنفسه مهتم بفكاكها لا ينظر إلى غيره، فإنه لا يفكر في سوى نفسه، حتى إن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ ليقول الواحد منهم يؤمئذ «نفسي نفسي» فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء؛ فهم كما ذكر ـ سبحانه ـ :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ .

يعني يوم القيامة. مسفرة: من الإسفار وهو الوضوح؛ لأن وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح والبهجة، مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

يعني متبسمة، بما رأته من كرامة الله ورضوانه وهذا من كمال سرورهم، قد بشرت بالخير والنعيم الدائم.

قال عطاء الخرساني: مُسفرة من طول ما أغبرت في سبيل الله.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

أي: وجـوه الأشـقياء، وهذا هو حال الفريق الثاني يوم القيامة . عليها شـيء كالغبار والدخان؛ لأنها ذميمة قبيحة. يغشاها وتعلوها ظلمة وسواد، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

أي: الذين هذا وصفهم، قد جمعوا بين الكفر والفجور.

والفجرة: هم الفاسقون الكاذبون.

قال المفسرون: جمع الله ـ تعالى ـ إلى سـواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الكفر إلى الفجور.

هذا وصلوا...

٢٦ الخطبة الأولى [1]

الحمد لله خلق فسوى، وقدر فهدى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله وسارعوا إلى جنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين.

عباد الله:

سورة التكوير سورة مكية، نزلت في مكة، ذكر الله ﷻ فيها آيات وعظات وعبراً، وجعل التفكر في عجائب صنعه وعظيم خلقه من العبادات العظيمة؛ فإنه ـ سبحانه ـ خلق هذا الكون العظيم بنظام دقيق متناسق لاخلل فيه ولا اضطراب، وذلك من أعظم آيات الله ﷻ، وجعل لهذا النظام الدقيق والصنع البديع أجلاً ينتهي إليه، حيث تتغير السموات والأرض وتفسد تلك الأجرام الهائلة، وتتغير بعض الكائنات، وكل ذلك مؤذن ببدء حياة جديدة، هي اليوم الآخر، ذكرها ـ سبحانه ـ في هذه الآيات، مبيناً لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب.

---

(١) سورة (التكوير).

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين، فليقرأ: «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء أنشقت»** [رواه الترمذي].

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

وكورت: أي جمعت ولُفت ومُحي ضوءها، وجعلت مثل شكل الكرة، وهذا يكون يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

قال ابن عاشور: وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدة الهول، فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

وإذا سأل الله البنت المدفونة وهي على قيد الحياة: ما الجريمة التي فعلتيها حتى يدفنك أهلك، فيقتلونك بهذا الدفن؟ وهذا فيه تبكيت لقاتلها، وتهويل للموقف الذي يسأل فيه المجني عليه، فما ظنك بما يلاقيه الجاني لهذا الجناية البشعة؟

قال تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له: إيْش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ فالأمر

منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق فأين العدول، وأين المذهب؟

عباد الله(١):

وفي سياق السور تأتي سورة الانفطار وهي سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها ما أكرم به الإنسان من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة وعرفه نعمه عليه، ومع كثرة النعم وجزيل العطاء، ربما يحمل ذلك الإنسان على معصية الله ﷻ لما يراه من تعاقب النعم وتوافر الخيرات، ولا يردعه عن ذلك مثل التذكير والاتعاظ ومعرفته بأن الأحوال تتغير، وأن الله لا يرضى أن تكون نعمه وسيلة لمقارفة المعاصي والآثام . وفي سورة الانفطار تحذير الإنسان من الاغترار بالنعم والتمادي في المعصية لأن أمامه يوم عظيم، وموقف عصيب، يجازى فيه الإنسان على ما قدم وأخر من الأعمال، وهو يوم القيامة، الذي ذكر الله بعضاً من صفاته وأحواله في هذه السورة .

قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، وعلمت ما قدمت من عمل خير أو شر .

عباد الله:

ثم ذكر الله ﷻ عن جحود الإنسان وكفرانه لنعمه، وهو يتلقى

---

(١) سورة (الإنفطار).

فيـوض النعمة منه ـ جل وعلا ـ، ولكنـه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكره على الفضل والنعمة والكرامة .

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ﴾.

المـراد بالإنسان هنـا الكافر، وقيـل : الإنسـان مـن حيث هـو إنسان، وناداه ـ سبحانه ـ بصفة الإنسان لما أودع فيه من العقل وميزه به عن سائر المخلوقات .

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

يعني: أي شـيء خدعك وسـول لك حيث تكـذب بالبعث، وتعصي الله في الأمـر والنهي، أتهاونـًا منك في حقوقـه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

وقيل: إنه ـ سـبحانه ـ ذكر ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ دون سـائر أسمائه وصفاته لأنه لا ينبغي مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور.

وتأمل في سر التعبير بقوله ﴿بِرَبِّكَ﴾ دون قوله الله فإن في هذه اللفظة من معاني الملك والرعاية والرفق التي تناسب تذكر الإنسان بنعم الله عليه، وتذكير باستحقاقه ـ تعالى ـ لطاعة مربوبيه .

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

أي: أليـس هـو الذي خلقك من نطفة ولـم تك شـيئـًا، وأوجـدك من العدم ولـم تك شيئـًا. فجعلك مستوي الخلقة تسمع وتبصر وتعقل، وجعلك معتدل القامة، حسن الصورة، وجعل أعضاءك متعادلة متناسبة.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: الله ركبك في أي صورة شاء، وهذا من نعم الله على الإنسان أنه سوى خلقه وحسن صورته.

ومع هذا العطاء الجزيل والنعم المتتالية إلا أن هناك من يجحد هذه النعمة ويصرف العبادة لغير الله. قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به، يعني: مع هذا الخلق والإمداد والإعداد.

﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

أي: لا تصدقون بالجزاء والحساب .

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

أي: من الملائكة يحفظون ويكتبون أعمالكم . كراماً على ربهم، يكتبون ويدونون أقوالكم وأعمالكم، إما بالمشاهدة إن كان فعلاً، وإما بالسماع إن كان قولاً، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه. استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم،والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين .

ثم لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الآيات السابقة النعم العظيمة، ووجوب طاعة الله ومراقبته، وأن كل ما يعمله الإنسان

محصيّ ومكتوب له أو عليه، ذكر منازل المطيعين ومنازل العاصين، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

هذا بيان للنهاية والجزاء. والأبرار جمع بر، وهم كثيروا فعل الخير والطاعات، المتباعدون عن الشر، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده؛ فإنهم في نعيم في القلب، ونعيم في البدن.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

وإن الكفار الذين كفروا بربهم وقصروا في حقوق الله وحقوق عباده، لفي نار حامية محرقة.

عباد الله:

والآية ليست مقصورة على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم، في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى: كل من عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان فهو من الأبرار الصالحين، وكل من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين، إنما الضابط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤].

قال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

يدخلونهـا ويحترقون بها يوم الجـزاء، وذلك يوم القيامة. ولـن يغيبوا عنها فيخرجوا منها؛ بل هم ملازمون لها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾.

يـوم القيامة لا أحد يملك لأحد شـيئًا، لا بجلب خيـر، ولا بدفع ضرر إلا بإذن الله ﷻ.

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

أي: في الآخرة الأمر لله ﷻ ولا تملك نفس لنفس شيئًا إلا بإذن الله، والله ﷻ يتفرد بـه ـ سـبحانه ـ، لا يُملك أحداً في ذلك اليوم شـيئًا كما ملكهم في الدنيا، ولا يقهره قاهر ولا ينازعه أحد.

عباد الله(١):

نتحدث عن سورة أخرى عظيمة، وكل سورة القرآن عظيمة، ألا وهي سورة الإنشقاق.

سـورة الانشـقاق سـورة مكيـة، ذكـر الله ﷻ فيها أهـوال وأحوال القيامة؛ وهي اليوم المهول الذي يُجازى فيه العباد على أعمالهم، فإن الله ﷻ خلـق الخلق لعبادته وطاعته، وجعل لهم أمداً وأجلاً يرجعون إليه فيه، فيحاسـب المرء على ما قدم، إن خيراً فخير وإن شـرّاً فشـر، وذلك يوم القيامة

---

(١) سورة (الانشقاق).

حيث تقع فيه الأهوال العظيمة، وتحدث كوارث وشدائد كما ذكر الله ﷻ في وصفها، وهذه الآيات وأمثالها آيات دالة على ربوبية الله ﷻ، مستلزمة للعلم بصفات كماله، وعظيم قدرته .

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾.

انشقت: أي: انفتحت وانفرجت وتصدعت وتقطعت، وانتثرت نجومها، وخُسف بشمسها وقمرها، وهذا من علامات القيامة.

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

تأكيداً لاستماعها لربها، واستسلامها وطاعتها له.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تأمل أيها الآدمي البشر الضعيف كيف كانت هذه المخلوقات العظيمة تسمع وتطيع الله ﷻ، هذه الطاعة العظيمة في ابتداء الخلق وفي انتهاء الخلق، في ابتداء الخلق قال: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وفي انتهاء الخلق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١- ٢]. حق لها أن تأذن وتسمع وتطيع .

قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

أذنت: بمعنى استمعت، وأطاعت أمر ربها ﷻ، وحق لها أن تأذن، أي تسمع وتنقاد وتطيع فإنها مسخرة مدبرة تحت مُسخر ملك عظيم، لا يُعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾.

أي: بُسطت، ودكت جبالها حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

أي: جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، وخلت الأرض غاية الخلو حتى لم يبق شيء في بطنها وذلك يُؤذن بعظم الهول .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

أذنت: يعني استمعت وأطاعت لأمر ربها مثلما أطاعت السماء لربها وحقت .

والمتأمل في الآيات يلحظ عظيم الأهوال، بدأ بالعالم العلوي الذي هو أشرف وأنظم من العالم السفلي، وآذن بتغير أحواله ونهايته.

بارك الله لي ولكم....

الخطبة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

عباد الله:

لا يزال الحديث عن سورة الإنشقاق حيث ذكر الله ﷻ حال الإنسان وأنه جاهدٌ ومجد في أعماله التي عاقبتها ونهايتها الموت، فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَـٰقِيهِ﴾.

أي: أنك تكدح أيها الإنسان كدحًا يوصلك إلى ربك فإليه المرجع وإليه المآب. فما أسرع أن تلاقي الله ﷻ، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر.

والكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة.

وقد ذكر الله ﷻ بعد هذه الآيات العظيمة حال الناس بعد الحساب والجزاء، حيث ذكر أهل اليمين من يؤتى كتابه بيمينه وهذه علامة السعادة، وأهل الشمال من يؤتى كتابه وراء ظهره، فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾.

أي: من أعطي كتابه بيمينه وهو المؤمن . فسوف يحاسبه الله - تعالى - بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب سهل يسير، يُجازى

على حسناته، ويتجاوز عن سيئاته، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك، قال الله ـ تعالى ـ: «**إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم**».

قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحد يحاسب إلا هلك**»، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾.

قال: «**ذلك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك**» [رواه البخاري].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

ينقلب ويعود من الحساب إلى أهله من الزوجات والحور العين في الجنة، مسروراً مبتهجاً بما أعطاه الله من الخير والكرامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.

عباد الله:

هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره وليس عن يمينه، لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وهذه علامة الشقاوة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

أي: إذا قرأ كتابه يدعو على نفسه بالثبور، من كلمات الندم والحسرة والخزي ويتمنى الهلاك والموت .

يصلى النار التي تُسَّعر به ويقاسي عذابها وحرّها، ويكون مخلداً فيها أبداً، لأنه كافر. فقد كان في الدنيا متبعاً لهواه وركوب شهوته غافلاً لاهياً عما أمامه؛ وقد وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل .

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾.

أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد الموت للجزاء والحساب.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

أي: سيحور ويرجع وسيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان به بصيراً عليماً خبيراً.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

قال الحسن البصري: «حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة».

هذا وصلوا....

٢٧ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها المسلمون:

الابتلاء إذا جرى على المسلم فإن عاقبة الصبر عاقبة حميدة حسنة، وفيها الرضا بقضاء الله وقدره والصبر على أقداره، وفيها حسن التوجه والانطرح بين يدي الله بالدعاء والاستغفار والتوبة.

جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومـًا إبتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**» [رواه الترمذي].

عباد الله:

سورة البروج سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أن هذه الدنيا سجال بين أهل الحق وأهل الباطل، وذكر سبحانه أحوال بعض الأمم السابقة

---

(١) سورة (البروج).

وما جرى بين الفريقين، حيث ذكر قصة أصحاب الأخدود، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، عن جابر بن سمرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر، بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق، ونحوهما» [رواه الترمذي].

قال تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١ - ١٠].

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ الواو حرف قسم، يقسم تعالى بالسماء وبروجها، والله ﷻ يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له أن يُقسم بغير الله، فإن القسم بغير الله شرك.

﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي: صاحبة البروج، والبروج جمع برج، وهو المجموعة العظيمة من النجوم، وسميت بروجاً لعلوها وارتفاعها وظهورها وبيانها في أكمل ترتيب، وأتم نظام، دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ اليوم الموعود: هو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه.

﴿وَشَاهِدٖ﴾ من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق.

﴿وَمَشۡهُودٖ﴾ ما يشهد به الشاهدون على المجرمين من الجرائم الفظيعة التي فعلوها بالشهود وأنفسهم، وهم كل من قتل في سبيل الله كما في قصة أصحاب الأخدود.

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ يعني: أهلك وعذب، وهو جواب القسم، قال ابن عباس: كل شيء في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهو لعن، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ هم قوم كفار أحرقوا المؤمنين بالنار، حيث شقوا لهم شقًّا في الأرض وأضرموا فيه النار فألقوهم فيها وأحرقوهم.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ أي: النار العظيمة المتأججة ذات الحطب الذي توقد به، والتي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لإحراق المؤمنين.

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين حفروا الأخاديد وألقوا فيها المؤمنين كانوا ـ والعياذ بالله ـ عندهم قوة وجبروت، يرون النار تلتهم هؤلاء البشر وهم قعود عليها على الأسرة، فيعرضون المؤمنين على الكفر، فمن أبى ألقوه فيها، وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يعني: هم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين، أي: استحقوا هذه العقوبة أن الله أهلكهم ولعنهم. وهذا التعدي والظلم على عباد الله الصالحين كان سببه ما ذكره الله ﷻ، والغرض تخويف كفار قريش، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله قصة أصحاب الأخدود وعيداً للكفار، وتسلية للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: ما أنكر هؤلاء الذين سعروا النار بأجساد هؤلاء المؤمنين ولا انتقموا منهم: إلا أنهم آمنوا بالله؛ العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، ولا يُضام من لاذ بجنابه. الحميد في جميع أقواله وأفعاله، فالله ﷻ محمود على كل حال، وما فعله هؤلاء الكفار ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي اختص بملك السموات والأرض خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: مُطلع ﷻ ـ على كل شيء، وهذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم وعدهم وأوعدهم، وشدد تعالى النكير عليهم، وعرض عليهم التوبة، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ إن عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات. ثم لم يرجعوا إلى الله من معصيته إلى طاعته.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق لأنهم أحرقوا أولياء الله فكان جزاؤهم مثل عملهم جزاء وفاقًا.

قال الحسن: انظر إلى حلم الله ﷻ يحرقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة.

ثم ذكر سبحانه حال أهل السعادة بعد ذكر عقوبة الظالمين ومصيرهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ١١ - ٢٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله،

وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فإن هذا هو الإيمان، وعملوا الأعمال الصالحة بجوارحهم.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي: من جمع بين الإيمان وعمل الصالحات، لهم عند الله جنات متصفة بهذه الصفة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: فإنهم يدخلون في الآخرة هذه الجنات التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تسيل وتجري من تحت أشجارها وقصورها المياه الجارية.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الجنات وما فيها من النعيم هو الذي به النجاة من كل مرهوب، وحصول كل مطلوب الذي لا سعادة ولا فوز بعده.

والجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور فحسب، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً، فأيسر يسر من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك

عباد الله:

ثم ذكر الله ﷻ بعد الآيات السابقة قوته وعظمته وشدة بطشه بمن خالف أمره، حيث ذكر قصة فرعون وثمود وما جرى لهما، فقال تعالى:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: أخذه بالعقاب لأهل الجرائم والذنوب والعظام بالغ الغاية في الشدة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: الله ﷻ يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت فالأمر إليه ابتداء وإعادة.

أقسم الله تعالى فيها بقوله ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ والبروج هي نجوم السماء، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ والله ﷻ لا يقسم إلا بشيء عظيم، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله أو أسمائه وصفاته.

يقسم تعالى على ما جرى لأصحاب الأخدود والأخدود حفر عظيمة.

عباد الله:

في الحديث عن جابر بن سمرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق ونحوهما» [رواه الترمذي].

قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وهو الحميد، مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجلِّ الأعمال، قال ﷺ: «**والحمد لله تملأ**

الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض» [رواه مسلم].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يعني: ذا المغفرة، الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها والمغفرة: ستر الذنب والعفو عنه فليست المغفرة ستر الذنب فقط بل ستره وعدم المؤاخذة عليه.

﴿ٱلْوَدُود﴾ مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة، فهو - جل وعلا - ودود. ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، كثير المحبة لمن أطاعه.

وفي هذا سر لطيف: حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله، وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه.

ما ألطف اقتران اسم الودود بالغفور: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] فالرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، والله يغفر ويحب عبده إذا تاب، فهو يحب التوابين.

ثم بين عظمته وتمام سلطانه في قوله تعالى:

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾.

أي: صاحب العرش. والعرش هو الذي استوى عليه الله ﷻ، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وخلقه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه.

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾.

المجد: هو النهاية في الكرم والفضل.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

هذا وصف الله - تعالى - بأنه الفعال لما يريد، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

بارك لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

عباد الله:

ثم لما ذكر رحمته بعباده المؤمنين ورأفته بهم، ذكر أحداث بعض الأمم السابقة، الدال على صدق ما جاءت به الرسل، فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الخطاب هنا موجه لرسول الله ﷺ أو لكل من يصح أن يتوجه إليه بالخطاب، أي: هل بلغك ما أحل الله من البأس وأنزل من النقمة التي لم يردها أحد من بالجموع الكافرة الذين تجندوا على حرب الرسل وأولياء الله، وفي ذلك مؤانسة للنبي ﷺ بذلك وتسلية، ثم بين من هم بقوله.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ يعني: هل أتاك خبر وقصة فرعون وثمود، أولى البأس والشدة وقصتهم؟ والجواب: نعم أتانا خبرهم فقد أخذهم الله بذنوبهم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي: أن الذين كفروا بمحمد ﷺ في تكذيب، وكأنهم منغمسون في التكذيب مستمرون في الكفر والطغيان.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ يعني: أن الله تعالى محيط بهم من كل جانب، لا يشذون عنه ولا عن علمه ولا عن سلطانه ولا عن عقابه. والإحاطة بالشيء: الحصر له من جميع جوانبه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: ما جاء به الرسول ﷺ وكذب به المشركون.

﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: ذو عظمة ومجد متناه في الشرف والكرم والبركة، قد سمى على سائر الكتب السماوية، في إعجازة ونظمه وصحة معانيه لأنه كلام الله ﷻ، وهو ليس كما يقولون: إنه شعر وكهانة وسحر. والقرآن ذو عظمة ومجد، ووصف القرآن بأنه مجيد لا يعني أن المجد وصف القرآن نفسه فقط، بل هو وصف للقرآن ولمن تحمل هذا القرآن، فحمله وقام بواجبه من تلاوته حق تلاوته، فإن يكون لهم المجد والعز والرفعة

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، يعني: بذلك اللوح المحفوظ عند الله ﷻ هو أم الكتاب وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى.

هذا وصلوا...

٢٨ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله شرح صدور عباده المؤمنين للتقوى، ودلهم على الطريق الموصل إلى الأخرى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - والزموه، فإنه الوصية العظمى والنجاة في الأخرى.

عباد الله:

سورة الشرح سورة مكية، تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله ـ تعالى ـ.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وقد ذكر ﷻ في السورة ما وقع للنبي ﷺ من أحداث، فبينما كان النبي ﷺ وهو صغير يلعب مع الصبيان، إذ جاءه جبريل عليه السلام، فألقاه على ظهره ثم شرح (شق) صدره، واستخرج قلبه وشقه، وأخرج منه قطعة سوداء، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل قلبه بماء زمزم في

---

(١) سورة (الشرح).

طست من ذهب، ثم أعاده إلى مكانه. يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بقي أثر المخيط في صدره ﷺ، فحصل بذلك شرح صدر النبي ﷺ حسيّاً بشقه وإخراج القطعة السوداء من قلبه، كما شرح صدره معنويّاً بنور الإيمان والنبوة، وقد امتن الله على نبيه ﷺ ذلك، فقال تَعَالَى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ١ ـ ٨].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هذا الاستفهام استفهام تقرير، ذكر تَعَالَى موضحاً ومبيناً نعمته على نبيه محمد ﷺ، أي: ـ يا محمد ـ، قد شرحنا لك صدرك لقبول النبوة، ومن هنا قام بما قام به من الدعوة، وقدر على حمل أعباء النبوة وتكاليفها.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وضعناه أي: طرحناه، وعفونا، وسامحنا، وتجاوزنا عنك، وقد غُفر للنبي ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يعني: أقضك وآلمك وأثقلك.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وجعلنا لك الثناء الحسن العالي في الدنيا والآخرة الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا بشارة من الله عَزَّ وَجَلَّ للرسول ﷺ ولسائر الأمة، فإن مع الضيقة سعة، ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرج.

﴿فَإِن مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر، وهذا من نعم الله عَزَّ وَجَلَّ ولن يغلب عسر يسرين. قال

المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده باليسر، كما عدد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيساً له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أصلاً، والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أعمالك وصلاتك، أو من التبليغ، فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، أو: فانصب في العبادة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي: تضرع إليه وحده سبحانه رهباً من النار، راغباً في الجنة وانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه، مفوضاً أمرك له، ولا تكن ممن إذا فرغوا أو تفرغوا لعبوا وأعراضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين.

وإنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات، والمراد الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي .

عباد الله:

وكما شرح صدره معنويّاً بنور الإيمان والنبوة، وامتن الله على نبيه ﷺ ذلك، فقد ذكر ﷻ العسر بعد اليسر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ – ٦].

بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر ـ يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر.

وتعريف ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر ـ وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ ـ فإنه في آخره التيسير ملازم له.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

لم يقل (بعد) بل قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ليبعث التفاؤل في النفس وقرب الفرج، وأن الفرج ملازم للعسر قريب منه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

أي: إن مع ذلك العسر المذكور سابقًا يسراً آخر، وهذا من نعم الله ﷻ ولن يغلب عسر يسرين.

قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده باليسر، كما عدد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيسًا له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أصلاً، والمؤمنين تبعًا بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

أي: إذا فرغت من أعمالك وصلاتك، أو من التبليغ، فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك.

أو: فانصب في العبادة. وتضرع إليه وحده ـ سبحانه ـ رهبًا من النار، راغبًا في الجنة وانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، واجعل رغبتك إليه خصوصًا، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه، مفوضًا أمرك له، ولا تكن ممن إذا فرغوا أو تفرغوا لعبوا وأعراضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين .

قال الشيخ ابن عثيمين: إن استراحتك لتنشيط نفسك وإعادة النشاط يعتبر شغلاً وعملاً، يعني لا يلزم الشغل بالحركات، ففراغك من أجل أن تنشط للعمل الآخر يعتبر عملاً، المهم أن تجعل حياتك كلها جداً وعملاً.

عباد الله:

من أسباب شرح الصدور:

السبب الأول: قوة التوحيد. فإن من أعظم الأسباب لشرح الصدر وطرد الغم، بل هو أجلّ الأسباب وأكبرها: قوة التوحيد وتفويض الأمر على الله – تعالى–، بأن يعتقد العبد اعتقاداً جازمًا لاشك فيه ولا ريب، أن ا لله ﷻ وحده هو الذي يجلب النفع ويدفع الضر، وأنه – تعالى – لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، عدلٌ في قضائه، يعطي من يشاء بعدله، ويمنع ويبتلي من يشاء بعدله، ولا يظلم ربك أحداً.

فعلى العبد أن يحرص على عمارة قلبه بهذه الاعتقادات وما يتبعها فإنه متى كان كذلك؛ أذهب الله غمّه، وأبدله من بعد خوفه أمناً.

قال ابن القيم:

(فمحبة الله - تعالى - ومعرفته ودوام ذكره، والسكون إليه والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جَنَّةُ الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين). انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

السبب الثاني لشرح الصدور:

حسن الظن بالله - تعالى - وذلك بأن تستشعر أنّ الله - تعالى - فارجٌ لهمّك كاشف لغمّك، فإنه متى ما أحسن العبد ظنّه بربه، فتح الله عليه من بركاته من حيث لا يحتسب، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الله - تعالى - أنا عند ظن عبدي بي، إن ظنّ خيراً فله، وإن ظنّ شراً فله**» [رواه أحمد]، فأحسن ظنك بالله، وعلق رجاءك به، وإياك وسوء الظن بالله، فإنه من الموبقات المهلكات، قال تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

السبب الثالث:

كثرة الدعاء والإلحاح على الله بذلك، فيا من ضاق صدره وتكدّر أمره، ارفع أكفّ الضراعة إلى مولاك، وبثّ شكواك وحزنك إليه،

واذرف الدمع بين يديه، وأعلم - رعاك الله تعالى -: أرحم بك من أملك وأبيك وصحابتك وبينك.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على ا لنبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها**» [رواه البخاري].

السبب الرابع:

تفقد النفس والمبادرة إلى ترك المعاصي، أتريد مخرجاً لك مما أنت فيه وأنت ترتع في بعض المعاصي؟ يا عجباً لك! تسأل الله لنفسك حاجتها وتنسى جناياتها، ألم تعلم هداك الله تعالى أن الذنوب باب عظيم ترد منه المصائب على العبد: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

استسقى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال في دعائه: «اللّهم إنه لم تنزل عقوبة إلا بذنب ولا تنكشف إلا بتوبة».

قال ابن القيم:

(وما يُجازى به المسيء من ضيق الصدر، وقسوة القلب، وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من

له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق: عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنم حاضرة. وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته: ثواب عاجل، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة...).

هذا وصلوا وسلموا...

الخطبة الثانية

الحمد لله أهل الحمد والشكر، والإحسان والبر، أحمده - سبحانه - وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، ونعمه تجلِّ عن الحصر، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبينا محمداً عبده ورسوله، أكرم رسول نزل عليه أشرف ذكر، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين؛ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الحشر.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله ﷻ، فتقوى الله أكرم ما أسررتم، وأجمل ما أظهرتم، وأفضل ما ادخرتم، أعاننا الله على لزومها، وأوجب لنا ثوابها.

عباد الله:

السبب الخامس من أسباب شرح الصدور: أداء الفرائض والمداومة عليها.

والإكثار من النوافل من صلاة وصيام وصدقة وبر وغير ذلك، فالمداومة على الفرائض والإكثار من النوافل من أسباب محبة الله - تعالى - لعبده، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي**

بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» [رواه البخاري].

السبب السادس:

الاجتماع بالجلساء الصالحين والاستئناس بسماع حديثهم والاستفادة من ثمرات كلامهم وتوجيهاتهم، فالجلوس مع هؤلاء مرضاة للرحمن، ومسخطة للشيطان.

السبب السابع:

قراءة القرآن الكريم تدبراً وتأملاً، وهذا من أعظم الأسباب في جلاء الأحزان وذهاب الهموم والغموم، فقراءة القرآن تورّث العبد طمأنينة في القلوب، وانشراحاً في الصدور ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

السبب الثامن:

المداومة على الأذكار الصباحية والمسائية وأذكار النوم، وما يتبع ذلك من أذكار اليوم والليلة، فتلك الأذكار تحصّن العبد المسلم بفضل الله تعالى من شر شياطين الجن والأنس، وتزيد العبد قوّة حسية ومعنوية إذا قالها مستشعراً لمعانيها موقناً بثمارها ونتاجها، ولتحرص - رعاك الله - على تلك الأذكار المتأكدة فيمن اعتراهم همّ أو غمّ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**» وكذا ما أخرجه البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يكثر من قوله: «**اللّهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل...**» إلى آخر الحديث.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا نزل به همّ أو غمّ قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**» [رواه الحاكم].

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**دعوات المكروب: «اللَّهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأنه كله لا إله إلا أنت**» [رواه أبوداود وابن حبان].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**ما أصاب عبداً همّ ولا حزن، فقال: «اللّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أستأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب غمي. إلا أذهب حزنه وهمّه، وأبدله مكانه فرحًا**» [رواه أحمد].

اللّهم اشرح صدورنا ويسّر أمورنا، وهييء لنا من أمرنا رشداً.

هذا وصلوا وسلموا...

٢٩ الخطبة الأولى [(١)]

الحمد لله الذي رفع راية التوحيد، ونصر عباده الموحدين، أشهد ألا إله إلا هو رب الأولين والآخرين، وأشهد أنَّ نبينا محمداً عبد الله ورسوله؛ أرسله كافة إلى الناس أجمعين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله ربكم، فإن تقواه خير عاصم من القواصم، وخير مانع من المصارع والقوامع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عباد الله:

سورة العصر سورة مكية، ذكر الله ﷻ فيها أنه خلق الخلق لعبادته وإقامة شرعه، والإنسان في هذه الدنيا بين أمرين؛ إما القيام بما أمر الله ﷻ به فقد أفلح ونجا، وإما التمرد والعصيان ومخالفة أمره ـ سبحانه ـ فقد خاب وخسر.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، ولو لم ينزل إليهم إلا هي لكفتهم، لأنها شملت جميع علوم القرآن.

---

(١) سورة (العصر).

قال تعالى:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ – ٣].

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أقسم الله تعالى بالعصر، والعصر قيل: إن المراد به آخر النهار؛ لأن آخر النهار أفضله، وقيل: إن العصر هو الدهر لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على التقدير، وتعاقب الظلام والضياء، وما في ذلك من استقامة الحياة ومصالح الأحياء، فإن ذلك دلالة بينة على الصانع ﷻ وعلى توحيده؛ على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والاعتصام بالصبر، وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: كل إنسان.

﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾ لفي هلاك؛ فكأن الإنسان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ استثنى الله تبارك وتعالى هؤلاء المتصفين بهذه الصفات الأربع وهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أهل الإيمان والتصديق الذي لا يخالجه شك ولا ريب، ولا تردد.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أنهم قاموا بالأعمال الصالحة: من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وبر للوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: صار بعضهم يوصي بعضاً بالحق. والحق: هو التوحيد والإيمان وأداء الطاعات وكل ما أمر به الشرع، والتواصي بالحق أمر

مطلوب، فالنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة تحتاج إلى تواصٍ وتعاضد.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضاً بالصبر. والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله.

وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره، وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إناقته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها.

فبالأمرين الأولين - الإيمان والعمل الصالح - يُكمِّل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين - بالنصح والإرشاد والصبر - يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم فقد جمع بين حق الله، وحق العباد. والسورة على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت.

قال ابن عاشور: التخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي بالصبر عليها؛ حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها.

قال ابن القيم: سورة العصر على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير.

قال الألوسي: وهي على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت .

عباد الله[١]:

لا نزال نتدارس سور من كتاب الله ﷻ، وسورة الكافرون سورة مكية؛ هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال. ذكر الله ﷻ، فيها أنه لا يجوز صرف العبادة لغيره ﷻ، وقد كان النبي ﷺ يعلن دعوته على الملأ أن لا معبود بحق إلا الله. قيل: إن قريشاً من جهلها وطغيانها دعت النبي ﷺ إلى عبادة أوثانها سنة، ويعبدون الله سنة، فأنزل الله هذه السورة، ولم تكن العرب تجحد وجود الله ﷻ وأنه الخالق الرازق المدبر، لذا فهم يحجون ويتصدقون وينفقون، لكنهم جعلوا مع الله إلهاً آخر شريكاً له في العبادة. فأنزل الله هذه السورة لتعلن الدين كله لله لا شريك له .

(١) سورة (الكافرون).

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].

اشتملت على التوحيد العملي نصـًا وهي دالة على العلمي لزومـًا.

عباد الله:

سورة الكافرون؛ هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال. ذكر الله ﷻ، فيها أنه لا يجوز صرف العبادة لغيره ﷻ، وقد كان النبي ﷺ يعلن دعوته على الملأ أن لا معبود بحق إلا الله. قيل: إن قريشـًا من جهلها وطغيانها دعت النبي ﷺ إلى عبادة أوثانها سنة، ويعبدون الله سنة، فأنزل الله هذه السورة، ولم تكن العرب تجحد وجود الله ﷻ وأنه الخالق الرازق المدبر، لذا فهم يحجون ويتصدقون وينفقون، لكنهم جعلوا مع الله إلهـًا آخر شريكـًا له في العبادة. فأنزل الله هذه السورة لتعلن الدين كله لله لا شريك له، قال تعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: قل - يا محمد - و صرح وأعلن لهم بالنداء، وهذا يشمل كل كافر سواء كان من المشركين أو من اليهود، أو من النصارى.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا أعبد الذين تعبدونهم، وهم الأصنام والأوثان وأتبرأ منهم ظاهراً وباطنـًا، فهي لا تضر ولا تنفع ولا تغنى عن عابدها شيئـًا.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أنا لا أعبد أصنامكم، وأنتم لا تعبدون الله، ولستم أنتم ما دمتم على شرككم وكفركم عابدين لله الواحد الأحد الذي أعبده.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي: ولا أعبد في مستقبل أيامي وما يأتي من عمري؛ لن أعبد شيئًا من آلهتكم الباطلة التي تعبدونها، وفيه من قوة العبارة والثقة ما يقطع محاولاتهم بأن يتنازل عن دينه.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ قد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليس كذلك لأن الصيغة مختلفة،

أي: لن تعبدوا الله في مستقبل أيامكم ما دمتم على كفركم وعبادتكم للأصنام، فعبادتي ليست كعبادتكم، وعبادتكم ليست كعبادتي.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الذي أنتم عليه وتدينون به وهو الشرك والعياذ بالله.

﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أي: ولي ديني الذي لا أبغي غيره، وهو التوحيد، وعبادة الواحد الأحد، فأنا بريء من دينكم، وأنتم بريئون من ديني، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار.

و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصًا، وهي دالة على التوحيد العملي لزومًا. ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ﴾ [الكافرون: ٣].

قـد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليـس كذلك لأن الصيغة مختلفة، أي: لن تعبدوا الله في مستقبل أيامكم ما دمتم على كفركم وعبادتكم للأصنام، فعبادتي ليس كعبادتكم، وعبادتكم ليست كعبادتي .

قال ابن تيمية: «ليس في هذه الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ رضى بدين المشركين، ولا نهي عن جهادهم، بل فيها براءتهم من دينه، وبراءته من دينهم».

قال ابن تيمية: «كان نبينا ﷺ يقرن بين سورتي الكافرون والإخلاص في مواضع ففي سورة الإخلاص التوحيد القولي العلمي، وفي سورة الكافرون التوحيد القصدي العملي».

هذا وصلوا وسلموا...

الخطبة الثانية

الحمد لله أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك المشركين، وأشهد أن لا إله إلا الله الحق المبين، وأشهد أن نبينا محمد عبده ورسوله الصادق الأمين، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فاتقوا الله وراقبوه، واحذروا مخالفة أمره ونواهيه.

عباد الله:

فإن الولاء والبراء ركن من أركان العقيدة، وشرط من شروط الإيمان تغافل عنه كثير من الناس، وأهمله البعض، فاختلطت الأمور، وكثر المفرطون.

ومعنى **الولاء**: هو حب الله ورسوله والصحابة والمؤمنين والموحدين ونصرتهم.

والبراء: هو بغض من خالف الله ورسوله والصحابة والمؤمنين الموحدين من الكافرين والمشركين والمنافقين والمبتدعين والفساق.

فكل مؤمن موحد ملتزم للأوامر والنواهي الشرعية، تجب محبته وموالاته ونصرته. وكل من كان خلاف ذلك وجب التقرب إلى الله

تعالى ببغضه ومعاداته وجهاده بالقلب واللسان بحسب القدرة والإمكان، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١].

والولاء والبراء أوثق عرى الإيمان، وهو من أعمال القلوب، لكن تظهر مقتضياته على اللسان والجوارح، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «**من أحب لله، وأبغض لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**» [رواه أبو داود].

ومنزلة عقيدة الولاء والبراء من الشرع عظيمة، ومنها:

أولاً: أنها جزء من معنى الشهادة وهي قول: «لا إله» من «لا إله إلا الله» فإن معناها البراء من كل ما يعبد من دون الله.

ثانياً: أنها شرط في الإيمان كما قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠- ٨١].

ثالثاً: أن هذه العقيدة أوثق عرى الإيمان، لما روى أحمد في مسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**» [رواه أحمد].

ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء، لم يكن فرقاناً بين الحق والباطل، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

رابعـًا: أنها سبب لتذوق حلاوة الإيمان، ولذة اليقين، لما جاء عنه ﷺ أنه قال: « **ثلاث من وجدهن وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار** » [رواه أحمد].

خامسـًا: أنها الصلة التي يقوم على أساسها المجتمع المسلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

سادسـًا: انه بتحقيق هذه العقيدة تُنال ولاية الله، لما روى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك».

سابعـًا: أن عدم تحقيق هذه العقيدة قد يدخل في الكفر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

ثامنـًا: أن كثرة ورودها في الكتاب والسنة يدل على أهميتها.

هذا وصلوا وسلموا...

٣٠ الخطبة الأولى[١]

الحمد لله، حمداً طيبـًا كثيراً، وكفى بالله وليـًا، وكفى بالله نصيرا، من ركن إليه كفاه وآواه، واكتنفه وحماه، وكفى بالله وكيلاً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمـًا كثيراً.

أما بعد:

فاتقوا الله وراقبوه، وأطيعوا أمره ولا تعصوه. ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

عباد الله:

سورة الإخلاص سورة مكية؛ تعدل ثلث القرآن، قال ﷺ: «**من قرأ قل هو الله أحد؛ فكأنما قرأ بثلث القرآن**» [رواه أحمد والنسائي] وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**» [رواه الترمذي]، قيل لأن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات، وتقرير التوحيد تمام التقرير.

---

(١) سورة (الإخلاص).

وقد بشر النبي ﷺ من أحبها بأن حبه إياها أدخله الجنة، ونال به محبة الله تعالى. فعن عائشة: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**» وفي رواية الترمذي من حديث أنس: أن النبي ﷺ قال: «**حبك إياها أدخلك الجنة**».

وجاء في الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟**» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**» [رواه البخاري ومسلم].

عباد الله:

ومن فضل هذه السورة: أنها تقرأ في الركعة الثالثة في صلاة الوتر، وفي الركعة الثانية من سنة الفجر، وفي الركعة الثانية من سنة المغرب، وراتبه المغرب بعدها. وفي الركعة الأخير، من سنة الطواف، وفي أذكار الصباح والمساء، وعند النوم.

وفي السورة ذكر بعض صفات الله ﷻ الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت السورة على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذي جعلوا لله الذرية والبنين .

وسميت سورة «الإخلاص» بهذا الاسم، لأن الله أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها إلا ما يتعلق بأسمائه وصفاته، ولأنها تخلص صاحبها من الشرك والتعطيل.

وقد تضمنت السورة إثبات كل كمال لله ﷻ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ونفت كل نقص عن الله ﷻ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ونفت المثيل والشبيه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وفي بعض آية منها ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ رداً على ثلاث طوائف:

المشركون: الذين زعموا بأن الملائكة بنات الله.

ورد على اليهود: الزاعمين أن عزيراً ابن الله.

ورد على النصارى: الزاعمين أن المسيح ابن الله.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك؟ أي اذكر لنا نسبه، فنزلت هذه السورة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

أي: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والغني الذي قد كمل في غناه، المقصود في قضاء الحوائج وتفريج الكرب وقضاء الحاجات.

والدعاء عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ، وفي الدعاء من الذل والإنكسار في النفس وانشراح في الصدر، وصبر يسهل معه احتمال الواردات عليه، وهذا نوع من أنواع الإجابة.

وفي الدعاء معنى عظيم من أنواع العبودية وتخليص القلب وتفريغه من التعلق بغيره، والدعاء من أكرم الأشياء عند الله، كما روى ذلك الترمذي أنه ﷺ قال: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**».

عباد الله:

جاء في وصف ربنا سبحانه وتعالى أنه.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

أي لم يتخذ ولداً، وليس له أبناء وبنات؛ لأنه - جل وعلا - لا مثيل له.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه، ولأنه ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

أي: لم يكن له أحد مساوياً لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، فهو - سبحانه - لا يساويه أحد ولا يماثله، ولا يكافئه ولا يشاركه أحد في شيء من صفات كماله.

وهذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله - جل وعلا - عن صفات العجز والنقص.

فقد أثبتت الآية الأولى: الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وأثبتت الثانية: كماله - تعالى -، ونفت النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

وأثبتت الثالثة: أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

وأثبتت الرابعة: عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وفي السورة ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، الأحد، الصمد.

فالسورة شاملة جامعة لإثبات صفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: فإذا قيل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إن يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك؛ بل قد يكون قول العبد: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» مع حضور القلب وإنصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة، والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن.

عباد الله:

سورة الإخلاص سورة مكية؛ تعدل ثلث القرآن، قال ﷺ: «من قرأ: **قل هو الله أحد؛ فكأنما قرأ بثلث القرآن**» [رواه أحمد والنسائي]. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**» [رواه الترمذي]، قيل لأن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات، وتقرير التوحيد تمام التقرير.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله شرح صدور المؤمنين فانقادوا لطاعته، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، فلم يجدوا حرجاً في امتثال شريعته، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، وحاسبوا أنفسكم قبل موقف الحساب، فإن عليكم كراماً كاتبين، والله - تعالى - أسرع الحاسبين: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

عباد الله:

من فضائل سورة الإخلاص أن يبنى لقارئها بيت في الجنة. عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات، بني له بيتاً في الجنة، فقال عمر بن الخطاب إذا فستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب» [رواه أحمد وصححه الألباني].

ومن فضائلها: أن الدعاء بها مستجاب، ففي السنن الأربعة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يصلي يدعو يقول: اللهم إن أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال: «**والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب**» [رواه الترمذي].

هذا وصلوا وسلموا...

٣١ الخطبة الأولى (١)

الحمد لله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُ الله ورسوله، أظهر الله به دينه على الدين كله ولو كره المشركون، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

عباد الله:

فوصيَّةُ الله للأولين والآخرين تقوَاه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

أيها المسلمون:

لما كانت الشُّرورُ تعرِضُ للإنسانِ من حيث لا يحتسِب؛ وقد يتعلَّقُ الجاهلُ بما يعتقِدُ أنه يدفعُ عنه تلك الشُّرور شرعَ الله تعالى برحمته ولُطْفِه لخلْقه؛ ما يلوذون به ويستعيذُون؛ لتصلُحَ أديانُهم؛ وتسلمَ أبدانُهم.

---

(١) سورتي (الفلق) و(الناس) المعوذتين.

عن عقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**ألم ترَ آياتٍ أُنزلَت هذه الليلةَ؛ لم يُرَ مثلُهنَّ قطّ: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**» [رواه مسلم].

وسورةُ الفلقِ، وأختُها سورةُ الناسِ آياتٌ بيِّناتٌ؛ تذكُرُ الداءَ والدواء. كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذُ من الجانِّ وعينِ الإنسان، حتى نزلَت المُعوِّذتان، فلما نزلَتا؛ أخذَ بهما وتركَ ما سِواهما. أخرجه الترمذي والنسائي.

عباد الله:

هاتان السورتان، توجيهٌ من الله تعالى لنبيِّه ابتِداءً، وللمُؤمنين من بعده جميعًا؛ للعِياذ بكنَفِه، واللِّياذِ بحِماه. كما أن فيها تعميقُ التوحيدِ في النفوس.

ومعنى أَعُوذُ؛ أي: أَلُوذُ وألتجِئُ وأعتصِمُ بالله، وأطلبُ الحمايةَ منه. فالاستِعاذةُ عبادةٌ نسترضِي بها من نستعيذُ به سبحانه، وهي الثقةُ بأنه وحدَه القادرُ على دفع الخطَرِ ورفعِه.

ففي المُعوِّذةِ الأولى؛ أَمرَ اللهَ نبيَّه أن يستعيذَ ويحتمِيَ بربِّ الفلق، وهو الله سبحانه؛ ربُّ الصباح المُنفلِقِ عن الليلِ الكاشِفِ لظلامه.

وتخصيصُ الصُّبح بالتعوُّذ؛ لأن انبثاقَ نورِ الصُّبح بعد شدَّة الظُّلمة؛ كالمثَلِ لمجِيء الفرَج بعد الشدَّة، فكما أن الإنسانَ يكونُ مُنتظِرًا لطلُوعِ الصباح، فكذلكَ الخائفُ يترقَّبُ مجيءَ الفرَج والأمان، فقال الله لنبيِّه ولكلِّ مؤمنٍ به:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

سورة الفلق سورة مدنية؛ ذكر الله ﷻ فيها أن الإنسان في هذه الدنيا معرض للابتلاء والمصائب، وقد مر على النبي ﷺ الشدائد والمخاطر في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ، ومن ذلك أن اليهود سحروه ﷺ، فأنزل الله المعوذتين فقرأهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى انحل عنه السحر، فكأنما نشط من عقال ليس به بأس .

وهذه السورة والتي بعدها توجيه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للعياذ بكنفه واللعياذ بحماه، وأن يستعيذوا بجلاله وسلطانه من كل مُخَوف، خافٍ وظاهر، مجهول ومعلوم.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي: من شرِّ خلقِه إطلاقًا وإجمالاً، وهو عامٌّ لكل شرٍّ في الدنيا والآخرة، وشرِّ الإنس والجنِّ والشياطين، وشرِّ السِّباعِ والهوامِّ، وشرِّ النار، وشرِّ الذنوب والهوَى، وشرِّ النفسِ وشرِّ العمل، وشرِّ كلِّ ذي شرّ.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

الغسقُ: شدَّةُ الظلام، والغاسِقُ هو الليلُ أو من يتحرَّكُ في جوفِه. ومعنى وَقَبَ، أي: دخل. وهو الليلُ إذا أقبلَ بظلامِه. وقيل: هو وقتُ غروبِ الشمس. والمقصودُ: الاستِعاذةُ من الليلِ وما فيه.

والليلُ إذا غمرَ الأرضَ بجلاله، فهو حينئذٍ مخُوفٌ بذاتِه، ويتحرَّكُ في جُنحِه الشياطينُ والهوامُّ والوُحوش، وينشطُ المُجرِمون والكائِدون، وتشتدُّ الغرائزُ والشهوات، والهمومُ والأشجان؛ والمشاعرُ والوِجدان؛ وتهيجُ الوساوسُ والهواجِس.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾.

وهنَّ النساءُ الساحِراتُ الساعِياتُ بالأذى، بالنَّفثِ على عُقَدٍ يعقِدنَها في خيوطٍ ونحوِها على اسمِ المسحور، فيُؤذِي بذلك: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وقد عدَّ النبيُّ ﷺ السحرَ من كبائرِ الذنوبِ الموبقات.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحسدُ خُلُقٌ مذمومٌ طبعًا وشرعًا، وهو تمنِّي زوالِ النعمةِ التي أنعمَ اللهُ بها على المحسُود. ولو أن الناسَ توكَّلُوا على ربِّهم، وحصَّنُوا أنفسَهم بهؤلاء الآيات لكانُوا في مأمنٍ من الحسَد، وسلامةٍ من الإصابةِ بالعين.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

الحاسد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، مبغض للناس على ما وهبهم الله من نعم، يريد زوالها عنهم، ولا يرضى بما قسمه الله - تعالى - له، فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده.

﴿إِذَا حَسَدَ﴾.

أي: ومن حسد الحاسد، وهي العين التي تصيب المُعان، وقد قيدها ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الإنسان قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، بل لا يجد في قلبه شيئًا من ذلك.

عباد الله:

والسورة تنقسم إلى أربعة أقسام :

الأول: المستعيذ: كل من قرأ السورة بدأ بالنبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

الثاني: صيغة الاستعاذة: أعوذ.

الثالث: ومستعاذ به: الله ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

الرابع: ومستعاذ منه: أربع أشياء، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وجاء في الآية ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابدَّ، وليس كل حاسد عائن، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

واقترن الحاسد والساحر في السورة، لأن مقصدهما الشر للناس .

والعين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح.

وهذه السورة تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

الأول: شر المخلوقات التي لها شر عمومًا.

الثاني: وشر الغاسق إذا وقب .

الثالث: وشر النفاثات في العقد .

الرابع: وشر الحاسد إذا حسد .

فتضمنت الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

قال الحسن بن الفضل: ذكر الله ـ تعالى ـ الشر في هذه السورة (الفلق) ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخس طبع.

وفي السورة وبدئها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ صفة تفاؤل وتذكير بالنور بعد الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفرج بعد الانغلاق، والفلق كل ما يفلقه الله ـ تعالى ـ، كالنبات من الأرض، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك، وكله مما يوحي بالفجر المشرق العجيب.

عباد الله:

سورة الناس سورة مدنية، فيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين من الجن يزين له الكفر والفسوق والعصيان، فعلى المسلم أن يدافع تلك

الشياطين وذلك بالالتجاء والاعتصام بالله - سبحانه - ليحفظه ويقيه شرهم، ومن ذلك قراءة هذه السورة العظيمة، وقد ذكر الله في هذه السورة ربوبيته للناس، وملكه لهم، وإلهيته لهم، فإضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. وأما إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، والإضافة الثالثة فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله سواه، ولا معبود لهم غيره.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

عباد الله:

في المُعوِّذة الثانية، أمرَ سبحانه الناسَ أن يستعيذُوا بربِّهم الذي يصُونُهم، وبإلههم الذي يعبُدونَه من شرِّ الشياطين التي تحُولُ بينهم وبين عبادتِه.

والاستِعاذةُ من شرِّ الوسواس الخنَّاسِ -وهو الشيطان تعمُّ كلَّ شرِّه، لكنَّه وُصِفَ بأخطَرِ صِفاتِه، وأشدِّها شرًّا، وأقواها تأثيرًا، وهي: الوسوسةُ؛ التي هي بدايةُ الإرادة؛ فإن القلبَ يكون فارِغًا من الشرِّ والمعصِية، فيُوسوِسُ إليه، ويُحسِّنُ له الشرُّ، ويُرِيه إيَّاه في

صورةٍ حسنةٍ، ويُنشِّطُ إرادتَه لفعلِه، ويُقبِّحُ له الخيرَ ويُثبِّطُه عنه. وهو دائمًا بهذه الحالِ يُوسوِسُ ويخْنَس، ويجرِي من ابنِ آدمَ مجرَى الدم، كما ثبت ذلك في الصحيح.

قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (الشيطانُ جاثِمٌ على قلبِ ابنِ آدم؛ فإذا سهَا وغفلَ؛ وسوسَ، وإذا ذكرَ اللهَ خنَس). أي: هربَ وتراجَع.

والوسواسُ كما يكونُ من الجنِّ؛ فإنه يكونُ من الإنس، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾. وفيه تذكيرٌ بخُطورة شياطين الإنس، وقلَّ من يتنبَّهُ لخُطورتهم.

عباد الله:

سورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وتنقسم سورة الناس إلى أربعة أقسام:

الأول: مستعيذ: القارئ.

الثاني: صيغة استعاذة: أعوذ.

الثالث: مستعاذ به: برب الناس ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

الرابع: مستعاذ منه: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

وفي سورة الفلق ذكر المستعاذ به مرة واحدة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وفي سورة الناس ذكر المستعاذ به ثلاث مرات: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

وفي سورة الفلق ذكر المستعاذ منه أربعة أشياء، وفي سورة الناس ذكر مستعاذاً منه واحد ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

قيل: لأن سورة الفلق فيها فتن الشهوات فذكر المتسعاذ به مرة واحدة.

أما في سورة الناس فأكثر من المستعاذ به لأن المقام مقام فتن شبهات ووسوسة عقدية.

بارك الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حفظ عباده وحماهم من الشرور، وضاعف لهم المثوبة والأجور، وأشهد أن لا إله إلا الله الحق المبين، وأشهد أن نبينا محمداً الصادق الأمين، بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، وألجأوا إليه في السراء والضراء فإنه نعم المجيب.

عباد الله:

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

من المعلوم أن الله رب جميع الخلائق، وإنما قال رب الناس مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم؛ ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

ولم يقل في (قلوب الناس)، قال ابن باديس: والسر في التعبير بـ ﴿يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، بدلاً من (قلوب الناس) لأن القلب مجلى العقل، ومقر الإيمان، وقد يكون محصناً بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره، ولا يستطيع له نقبًا.

ثم بين - سبحانه - الذي يوسوس بأنه ضربان: جني أو إنسي، فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي: من الجن والناس، والوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجني فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فبما يوحي بعضهم إلى بعض من الشر ويزينونه في قلوبهم.

والمعنى : من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس، والسورة تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وقد جاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الخلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها .

وقد ورد في سورة الفلق استعاذة القارئ بصفة الربوبية مرة واحدة من أربعة أشياء، بينما يستعيذ في سورة الناس بثلاث صفات لله - جل وعلا - من شر شيء واحد - وهو الشيطان - وما ذاك إلا لشدة خطر الشيطان وكثرة مداخله على الإنسان.

عباد الله:

قراءةَ المُعوِّذتين؛ تُشرعُ في كلِّ وقت، وتتأكَّدُ قراءتُهما في المواطنِ التي وردَت عن النبي ﷺ، ومن ذلكَ: ما رواه الإمامُ أحمدُ وأبو داود، أن النبي ﷺ، أمر بقراءةِ المُعوِّذاتِ دُبُرَ كلِّ صلاة.

ومن ذلكَ: ما رواه البخاري، أن النبي ﷺ، كان إذا أوَى إلى فِراشِه كلَّ ليلةٍ، جمعَ كفَّيه، ثم نفثَ فيهما فقرأَ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسحُ بهما ما استطاعَ من جسَده، يبدأُ بهما على رأسِه ووجهِه وما أقبلَ من جسَده، يفعلُ ذلك ثلاثَ مرَّات.

والمُعوِّذتان رُقيةٌ يرقِي بها المُسلمُ نفسَه، ويرقِي بها غيرَه.

عن عائشة ، أن النبي ﷺ كان إذا اشتكَى؛ يقرأُ على نفسِه بالمُعوِّذاتِ وينفُث، فلما اشتدَّ وجعُه، كنتُ أقرأُ عليه، وأمسَحُ بيدِه رجاءَ بركتِها، وكان إذا مرِضَ أحدٌ من أهلِه، نفَثَ عليه بالمُعوِّذات. رواه البخاري.

بل إن المُعوِّذتين، تُقرأُ لتحصينِ النفسِ قبل نُزولِ البلاء.

وكان النبيُّ ﷺ، يتعوَّذُ من الجانِّ وعينِ الإنسان، حتى نزلَت المُعوِّذتان، فلما نزلَتا، أخذَ بهما وتركَ ما سِواهما. رواه الترمذي.

وجملةُ ذلك: أن قراءةَ المعوذتين، تتأكدُ بعدَ الصلواتِ الخمس، وقبلَ النوم، وفي الصباحِ والمساء، وللرقيةِ والتحصين.

هذا وصلوا....

فهرس

رقم الخطبة	موضوع الخطبة	الصفحة
-	المقدمة	٥
١	سورة (الفاتحة)	٧
٢	آية (الكرسي)	٢٠
٣	سورة (التوبة)	٢٩
٤	سورة (يوسف)، الجزء الأول	٤٤
٥	سورة (يوسف)، الجزء الثاني	٥٤
٦	سورة (الكهف)، الجزء الأول	٦٥
٧	سورة (الكهف)، الجزء الثاني	٧٦
٨	سورة (الكهف)، الجزء الثالث	٨٧
٩	سورة (المؤمنون)	٩٧

رقم الخطبة	موضوع الخطبة	الصفحة
١٠	سورة (النور)، الجزء الأول	١٠٩
١١	سورة (النور)، الجزء الثاني	١٢١
١٢	سورة (الفتح)	١٣٤
١٣	سورة (الحجرات)	١٤٤
١٤	سورة (ق) الجزء الأول	١٥٦
١٥	سورة (ق) الجزء الثاني	١٦٥
١٦	سورة (المجادلة)	١٧٤
١٧	سورة (الجمعة)	١٨٥
١٨	سورة (المنافقون)	١٩٦
١٩	سورة (الطلاق)، الجزء الأول	٢٠٦
٢٠	سورة (الطلاق) الجزء الثاني	٢١٧
٢١	سورة (التحريم)	٢٢٨
٢٢	سورة (القلم)	٢٤٠

رقم الخطبة	موضوع الخطبة	الصفحة
٢٣	سورة (نوح)	٢٥٠
٢٣	سورة (الجن)	٢٦١
٢٤	سورة (القيامة)	٢٦٤
٢٥	سورة (عبس)	٢٧٣
٢٦	سورة (التكوير)	٢٨٣
٢٦	سورة (الإنفطار)	٢٨٥
٢٦	سورة (الانشقاق)	٢٨٩
٢٧	سورة (البروج)	٢٩٥
٢٨	سورة (الشرح)	٣٠٦
٢٩	سورة (العصر)	٣١٧
٢٩	سورة (الكافرون)	٣٢٠
٣٠	سورة (الإخلاص)	٣٢٧
٣١	سورتي (الفلق) و(الناس) المعوذتين	٣٣٤